المجلس الحادي عشر

في فضائل الفقراء رضي الله عنهم

الحمد لله الذي جعل الأولياء صفوة خلقه ، فهم إلى لقائه يتأهبون ، تسلوا بالصوات على الشهوات وبحلاوة التلاوة عن اللذات ، فحبه في قلوبهم مصون ، صفحات وجوههم تنبيك عن أنوار قلوبهم ، فبنور جمال جلاله يعرفون ، مسك أنفاسهم قد عطر الكون . فهم في خيمة العزلة يتكتمون ، ونسيم السحر يحمل ذلك العطر فله الخلائق يستنشقون ، فلو ذاق الملوك قطرة من شرابهم لكانوا للدنيا يطلقون ، وإذا ترنموا بكلام الحبيب رأيتهم صحاة سكارى يغيبون ويحضرون ، وإذا هاج شوقهم هاموا في الجبال فلو رأيت أحدهم لقلت : إنه مجنون وإنما هو بحب مولاه مفتون ، فالجبال أوتاد الأرض وهو أوتاد الجبال فلولاهم لمادت الأرض بالخلائق حين يعصون ، فلا أخلى الله الأرض منهم ولا برح بيننا الصالحون ، يسلم عليهم الجبل وتستأنس بهم الوحوش وبهم البهائم يتبركون ، تتوسل بهم الأشجار وتصافحهم نسمات الأسحار ، تحرق أنفاسهم الشياطين فلا يصلون إلى سجادة أحدهم ولا يتقربون ، تعرض الدنيا كنوزهم عليهم فلا يميلون إليها ولا يلتفتون ، يفتخر الجبل على الجبل بوطء أقدامهم ويصير ترابه كحلاً للعيون وصحائف أعمالهم الظاهرة إذا صعدت به الملائكة المقربون تتعطر بطيبها السموات وتنظر إليها الملائكة ويتعجبون . وأما سرائرهم فلا يطلع عليها الكروبيون ولا الروحانيون ، وإنما الحق جل جلاله يقول : ما عندكم سواي فأنا الحبيب وأنتم المحبون . تحزن الدنيا على فراقهم والجنة من شوقها إليهم تسأل الله تعالى متى عليها يقدمون ، وفي غرفها ينزلون وبكاساتها يشربون وبحورها يتمتعون وفي حدائقها يتبخترون وفي روضاتها يحبرون وعلى نجائبها يركبون ولكلام الحق يسمعون ولوجه الكريم ينظرون ، فهذه مقاماتهم ، فما ادخرتم أيها المقصرون ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾ [الصافات : ٦١]

أنتم بقلبي أيها الراحلون ... جودوا بعود أيها الغائبون ... متى أرى أشخاصكم في الحمى

وأجتلي ذاك الجمال المصون ... متى أنادي عندما تقدموا ... أهلاً وسهلاً أيها القادمون

يا جيرة الحي وحق الذي ... صير صبري عنكمو لا يهون ... إن غرامي واشتياقي بكم

زاد إلى أن قيل عنه جنون ... وما تعوضت بديلاً بكم ... وذاك شيء في الهوى لا يكون

نحن المسيئون ومن ذنبنا ... إليك يا رب الورى تائبون ... فلا تؤاخذنا بأفعالنا

إنـا علـى أنفسـنا مسـرفون قـد مسـنا الضـر ولا راحـم سـواك يـا مـن لا تـراه العيـون

لا نشـتكي إلا إلى راحـم يطمـع في رحمتـه المـذنبون

وقال رسول الله : « أفضل الحرف ثلاث : الفقر والعلم الزهد » . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ما الفقر ؟ قال خزانة من خزائن الله ، ثم قال الثانية : ما الفقر يا رسول الله ؟ قال : كرامة من كرامات الله ؟ ثم قال الثالثة : ما الفقر يا رسول الله ؟ قال : شيء لا يعطيه الله إلا نبياً مرسلاً أو كريماً على الله عز وجل » .

وقال رسول الله ﷺ : « الفقير هو الذي لا يعلم الناس بجوعه ومرضه ، وخلق الله تعالى الخلق من طين الأرض وخلق الأنبياء والفقراء من طين الجنة ، فمن أراد أن يكون في عهد الله تعالى فليكرم الفقراء » . وقال رسول الله ﷺ : « للجنة ثمانية أبواب سبعة منها للفقراء وباب منها للأغنياء ، وللنار سبعة أبواب ستة منها محرمة على الفقراء حلّ للأغنياء وباب منها للفقراء » . وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : « أحب الخلق إلى الله تعالى الفقراء ، لأنه كان أحب الخلق إلى الله تعالى الأنبياء وابتلاهم بالفقر » . وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه قال : أيها الناس لا تحملكم العسرة والفاقة عن أن تطلبوا الرزق من غير حله فإني سمعت النبي ﷺ يقول : « اللهم توفني فقيراً ولا تتوفني غنياً واحشرني في زمرة المساكين » ، وقال النبي ﷺ : « إن الله تبارك وتعالى ينظر من هذه الأمة إلى العلماء والفقراء ، فالعلماء ورثتي والفقراء أحبائي » . وعن شقيق الزاهد ﷺ أنه قال : اختار الفقراء ثلاثة أشياء والأغنياء ثلاثة أشياء : اختار الفقراء : راحة النفس وفراغ القلب وخفة الحساب ، واختار الأغنياء : تعب النفس ، وشغل القلب ، وشدة الحساب :

طيبوا فلذات الهوى في الشجون ولم يزل سر هواكم مصون يا فقراء الحب قوموا اشهدوا
حسن حبيب عنه لا تحجبون في حضرة فيها لكم كل ما تهوون من فوز وما تشتهون
قد خصكم فيها برضوانه وروضة أنتم بها تحبرون وقد صفا الوقت لكم فاشربوا
كأساً وساق حسنه تشهدون في جبة دانية المجتنى قطوفها قد ذللت والغصون

أنهارها تجري بنيل المنى وكم بها قد فجرت من عيون
هذا هو الملك وهذا العطا وغير هذا مثله لا يكون

قال بعض السلف : والدليل على فضل الفقراء قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة : ١١٠] يعني أقيموا الصلاة لي ، وأدّوا الزكاة إلى الفقراء ، فقرن حق الفقراء بحق نفسه يقال : الفقير طبيب الغني ، وقصاره ورسوله وحارسه . قيل : هو طبيبه ، لأن الغنيّ إذا مرض يتصدق على الفقير فيدعو له فيبرأ من مرضه ، وإنما قيل : هو قصاره لأن

الغني إذا تصدق على الفقير يدعو له فيطهر الغني من ذنوبه ويطهر ماله ، وإنما قيل : هو رسوله لأن الغني إذا تصدق على الفقير بصدقة عن والديه أو عن أحد أقاربه فيصل ذلك إلى الموتى فصار الفقير رسوله ، وإنما قيل : هو حارسه لأن الغني إذا تصدق على الفقير فدعا له تحصن مال الغني بدعائه :

قوم همو في الدجى للناس أقمار ... وهم لمن هجر الأوطان أنصار ... وأين حلوا يحل الخصب ساحتهم
كأنهم مثل ما قد قيل أمطار ... صفوا فلا غرو أن تصفو مشاربهم ... وفي المصافاة للعشاق أسرار

يروي عليل الصبا عنهم صحيح هوى ... من الشذا فهو نقال ومعطار
هم العيون فإن تبصر هدى فبهم ... وفي الهدى ليس بعد العين آثار
سلهم وسل عنهمو إن كنت ذا وطر ... فعندهم لذوي الحاجات أوطار
وانعم إذا كنت تهواهم بعيشهم ... واصحبهمو إن نأت يوماً بك الدار
واحلل بساحتهم تسعد فهم عرب ... يحموا النزيل ولا يؤذى لهم جار

[وحكي] أنه لما مات ثابت البناني رحمه الله ودفن وسوى عليه اللبن انكسرت لبنة ، قال جعفر بن الحسين رحمه الله : فمددت يدي لآخذها من اللحد فلم أجده في لحده فتحيرت ولم أخبر بذلك أحداً وبقيت أفكر في ذلك حتى أتيت منزله وعزيت ابنته وسألتها عما كان يكثر من القول والدعاء ؟ فقالت : كنت أراه يبكي كثيراً يقول : ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٩] فقلت : قد استجاب الله تعالى دعاء الشيخ ، وقيل : لما مات ودفن قيل له : من ربك وما دينك ؟ فسمعوا هاتفاً من قبره يقول :

ولو ناديتني ميتاً ... للبيتك من قبري ... ولو فتشت في سري ... وجدت اسمك في صدري
رجائي فيك مدخور ... ليوم البعث والحشر ... وما أبدي وما أخفي ... من الإعلان والسر
فأنتم سادتي أدرى ... به والغير لا يدري ... وها أنا رهن عفوكمو ... ليوم الحشر والنشر

[وقال بعض السلف رضي الله عنهم أجمعين] : رأيت شاباً في سفح جبل عليه آثار القلق ودموعه تجري على خدوده ، فقلت له : من أنت يرحمك الله ؟ قال : عبد آبق من مولاه ، فقلت : يعود ويعتذر ، قال : العذر يحتاج إلى إقامة حجة ، فكيف يعتذر المقصر ؟ قلت : يتعلق بمن يشفع له . قال : كل الشفعاء يخافون منه ، قلت : فمن هو : قال مولى رباني صغيراً فعصيته كبيراً فواحيائي منه حين ألقاه من حسن صنعه وقبح فعلي ، ثم صاح وخرّ ميتاً ، فخرجت عجوز وقالت : من أعان على قتل البائس الحزين ؟ فقلت : أقيم عندك حتى أعينك على تجهيزه فقالت : خله ذليلاً بين يدي قاتله عسى يراه ذليلاً فيرحمه :

حاشاك تكسر قلباً أنت جابره ... أو يشتكي خذلاً من أنت ناصره

أنت العزيز وذلي فيك يشفع لي ... من عظم ذنب وجرم أنت غافره
يا سيدي عبدك المسكين ليس له ... سواك من شؤم قبح أنت ساتره
يلقاك في الحشر بالسرّ المصون ولم ... ينس الوداد ولا خانت ضمائره
لا يشتكي وحشة من أنت مؤنسه ... ولا يخيب عبيد أنت ذاكره
فأوّل العمر قد ضعيت واأسفاً ... عطفاً على ما بقي قد حان آخره

[وقال يوسف بن الحسين رحمه الله] : كنت قاعداً عند ذي النون المصري رحمه الله وحوله الناس وهو يتكلم عليهم والناس يبكون وشاب يضحك ، فقال له ذو النون : ما لك أيها الشاب الناس يبكون وأنت تضحك ؟ فأنشأ يقول :

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النجاة حظاً جزيلا
أو بأن يسكنوا الجنان فيضحوا ... في رياض ويشربوا سلسبيلا
ليس في النار والجنان مرامي ... أنا لا أبتغي بحبي بديلا

فقال ذو النون : فإن طردك فما تصنع ؟ فأنشأ يقول :

فإذا لم أجد من الحب وصلا ... رمت في النار منزلاً ومقيلا ... ثم أزعجت أهلها ببكائي
حيث عذبت بكرة وأصيلا ... قائلاً والغرام حشو ضلوعي ... حيث لا ألتقي لفوزي سبيلا
معشر المذنبين نوحوا على من ... لم يجد للوصال منهم وصولا ... عذبوني أو أعتقوا كل ما فيـ
ـه رضاكم وجدته مقبولا ... إن أكن بالذي ادعيت محقّا ... فعسى نظرة تعيد الجميلا

أو أكن كاذباً ودعواي زور ... فأجازى به عذاباً طويلا

فهتف هاتف يقول : يا ذا النون هكذا يكون المخلصون في حبهم لربهم يحبونه في السرّاء والضرّاء ويشكرونه على النعماء والبلاء :

أهل الصلاح وأهل البرّ قد سعدوا ... لما لمولاهمو دون الورى قصدوا
ما صدهم عن بلوغ القصد إذ رغبوا ... فيه من الفوز لا أهل ولا ولد
فأصبح القوم في كد وفي تعب ... أحلى من الشهد بل ما مثله الشهد
فطالما كابدوا في حب سيدهم ... وما انثنوا عن ورود القرب إذ وردوا
فليس يرتحلون الدهر من بلد ... إلا ويبكي عليهم ذالك البلد

[وقال ذو النون المصري رحمه الله] : بينما أنا سائح في بعض الجبال إذ سمعت صوتاً يئنّ ويستغيث ويبكي فتبعت الصوت فإذا هو شاب خشن الثياب عليه مدرعة من الشعر وقد افترض الرماد وهو يتمرغ عليه ويقول في مناجاته : إلهي وسيدي وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخافتك وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا بعقوبتك مستخف ولكن

سوّلت لي نفسي وغلبت عليّ شقوتي وغرني سترك المرخى عليّ فعصيتك بجهلي وخالفتك بسفهي فالآن من عذابك من يستنقذني وبحبل من أعتصم إذا قطعتني وأبعدتني ، واسوأتاه من الوقوف بين يديك ، واخجلتاه من العرض عليك فكم أتوب وأعود وأنقض العهود :

خنت العهود وقد عصيت تعمدا ... واخجلتي وفضيحتي منه غدا
واخجلتي ممن يراني دائماً ... أعصي ويسترني على طول المدى
فلينـدمنّ المذنب العاصي إذا ... لم ينتبه من قبل أن يأتي الردى
ما الأمر سهل فاستعدّ إلى اللقا ... واعلم بأنك لا تكون مخلدا
واذكر وقوفك في المعاد وأنت في ... كرب الحساب وجئت عبداً مفردا
سوفت حتى ضاع عمرك باطلاً ... وأطعت شيطان الغواية والعدا
فانهض وتب مما جنيت وقم إلى ... باب الكريم ولذ به متفردا
وادعوه في الأسحار دعوة مذنب ... واعزم ولاتك في المتاب مفندا
وإذا طردت عن الجناب فقم على ... أعتابه بالنوح منك معددا
فلعل رحمته تعم فإنها ... تسع العباد ومن بغى ومن اعتدى
وإذا أردت بأن تفوز وتتقي ... نار الجحيم ومرها المتوقدا
لذ بالنبي الهاشمي محمد ... خير الورى نسباً وأكرم محتدا
صلى عليه الله ما سرت الصبا ... وشدا الهزار على الغصون وغردا

المجلس الثاني عشر

من كلام الشيخ عز الدين المقدسي

الحمد لله مظهر الحق ومبديه ، ومنجز الوعد وموفيه ، ومسعد العبد ومشقيه ، ومذهب الذنب ومخفيه ، ومظمي القلب ومرويه ومعلّ الصب ومشفيه ، ومزيل الكرب ومجليه ، ومرسل السحاب ومنشيه ، ومبسم البرق وموريه ، ومنطق الرعد ومدويه ، ومورق الشجر ومربيه ، ومونق الزهر ومزهيه ، وممر الثمر ومحليه ، ومصور الجنين ومغذيه ، ومحق الحق ومبقيه ، ومبطل الباطل ومنفيه ، الذي تعرف إلى خلقه فحارت الخليقة فيه ، وتوعرت سبل معرفته فوقع السالكون في التيه ، فمالوا إلى العقول ، فقالت العقول : لا ندري من أي جهة

نأتيه ، فبعثوا بريد الأفكار فانقطع في مقطع انقطع فيه كل فقيه ، فأوقد مصابيح البصائر بأذهان الأذهان ، فاستدلوا بنور الإيمان ﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢٠] فلما انتهوا إلى قضاء العرفان ، تنكر لهم عزه في رفعة تعاليه ، وتحجب عنهم غيرة على عزة تجليه ، فانقلبوا إلى القلوب ، فقالت القلوب : إنما نحن بيوت التنزيه ، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه ، فاستمسكوا بأسمائه ، فقالت الأسماء : لا نطيق نسميه ، فعلقوا بالصفات . فقالت الصفات : لا نطيق نبديه . فعدلوا إلى الكلمات . فقالت الكلمات : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٤] فأشاروا إلى عرشه : هل أنت بقربك تليه ، أم بذنوّك تدانيه ؟ فناداهم العرش من سكرة تغاشيه وحيرة تلاشيه : لست بالمحيط به فأدريه . ولا بالحامل له فأحكيه ، ولا بالمتصل به فأحاذيه ، ولا بالمنفصل عنه فأقصيه . ولقد سألتم عن أمر لا أدريه . وكشفتم عن سرّ ما برحت أستميله وأستجليه . فما وقعت منه إلا على الحيرة والتيه . قالوا : فما أفادك قربك من تعاليه . وسموك في معاليه ؟ فقال : إن قربي منه كقرب النفس من تراقيه . وبعدي عنه كبعد السهم عن راميه ، وذلي له كذل العبد لمواليه ، وحنيني له كحنين العاشق إلى أيام وصاله ولياليه . قالوا : فما تقول ؟ قال : ما يقول المتحير فيه ، والمنقطع عن أمانيه . فقالوا : إن وصفت فصف على سبيل التنزيه . وإياك إياك بالتشبيه . وقال : هو الأول الذي لا أول يثانيه . الآخر الذي لا آخر يدانيه . الظاهر الذي لا ظاهر يضاهيه ، الباطن الذين لا باطن يواطيه ، البعيد الذي لا بالمسافة نوافيه ، القريب الذي متى شئت تلاقيه ، الأحد الذي لا أحد يحاذيه . الفرد الذي لا أمد له فينقطع تماديه . إن صافيته سقاك من كأس صفوته صافيه . وإن شربت بكأس محبته فالكأس هو ساقيه :

وحياة قلبي وقلبي في القسم تمويه ... الذكر للقلب والمعنى لمن هو فيه
هذا حبيب عظيم جل عن تشبيه ... وقد كتمت هواه لم أطق أبديه
ناديته وفؤداي في لظى يصليه ... إن مات قلبي غراماً فاللقا يحييه
العبد قانع بنظرة منكمو تكفيه ... والقلب طامع بزورة منكمو تشفيه
أنتم علمتم بما أبدي وما أخفيه ... وحياتكم في فؤادي منكمو ما فيه

إلهي أنت سؤلي ومنائي . وأنت في الظلمات نوري وضيائي . إلهي ما لي سواك وكم لك سوائي عصيتك بجهلي ودعوتك على قبيح فعلي فأجبت بفضلك دعائي . ولم تخيب في قصدك رجائي ، وشكوت إليك سقام قلبي فأزلت كربي وعجلت شفائي . وكم وقعت في الشدائد والأخطار . فأعنتني بالأنصار ونصرتي على أعدائي ، فلك الحمد يا عدتي في شدّتي ورخائي :

يـــا مالكـــاً لـــيس لي ســـواه كـــم لـــك في الخلـــق مـــن ســـوائي
أنـــت غـــنيّ وبي افتقـــار إليـــك يـــا ســـامع الـــدعاء

إن كنـت أذنبـت فيـك ذنبـاً ولـمـتني منـك واحيـائي عبـدك بالبـاب مسـتجيرا
قـد قـرح الجفـن بالبكـاء لـيس لـه عنـك مـن بـراح في العسـر واليسـر والرخـاء
عسى الـذي قـد قضـى ببعـدي يسـمح بـالقرب واللقـاء أراك بـالهجر تعتمـدني
حاشـاك مـا هكـذا رجـائي يـا بغيـة القلـب يـا مـرادي يـا منتهى القصـد يـا منـائي
يـا راحـة الـروح يـا حيـائي يـا نـور عـيني ويـا ضـيائي أنـت الـذي حـزت كـل أيـن
بـلا ابتـداء ولا انتـهاء قـد كنـت مـن قبـل كـل كـون بغـير أرض ولا سمـاء
ولا سـحاب ولا حجـاب ولا فضـاء ولا هـواء بغـير عـرش بغـير فـرش
بغـير نـار بغـير مـاء جـل عـن الكيـف في وجـود وفي شـهود وفي بهـاء
وفي اقتـراب وفي احتجـاب وفي نـزول وفي اسـتواء وعـن قيـام وعـن قعـود
وعـن هبـوط أو ارتقـاء ظهرت في الكـل لسـت تخفى وأنـت أخفـى مـن الخفـاء
في كـل شـيء أراك حقـاً بـلا جـدال ولا مـراء وحيثمـا كنـت أنـت مـني
كقـاب قوسـين غـير نـاء مـن عـن يمـيني وعـن شمـالي ومـن أمـامي ومـن ورائـي

يطيـب مـا عنـك حـدثتني نسـائم الصـبح والمسـاء

[قال الجنيد رحمة الله عليه] : عزمت على الحج في بعض السنين فركبت ناقتي ووجهتها نحو الكعبة شرفها الله تعالى فلوت عنقها وردت إلى نحو القسطنطينية فرددتها مراراً وهي تعود فقلت في نفسي : لله عزّ وجل في ذلك سرّ خفي فأطلقتها أين تريد ، وقلت : إلـهي وسيدي ليس لي حيلة إن كنت تريد أن تردني عن بيتك فالأمر كله إليك . قال : وجعلت الناقة تسير سيراً سريعاً حتى دخلت القسطنطينية ، فلما دخلت البلد رأيت الناس في هرج ومرج ، فسألت بعض أصحابي : ما سبب الذي هم فيه ؟ فقالوا : إن ابنة الملك قد ذهب عقلها وهم يلتمسون لها طبيباً يداويها ، فقلت في نفسي : وعزة ربي لهذا الأمر صرفني عن الحج في هذا العام ، فقلت لهم : أنا الطبيب ، فقالوا : أنت تداويها ؟ فقلت : نعم إن شاء الله تعالى فأخذوا بيدي وأدخلوني على الملك فاشترط عليّ الشرط فاستعنت بالله فأدخلني مخدعاً ، فسمعت فيه خشخشة الحديد وقائلاً يقول : يا جنيد كم تجدّ بك الناقة إلينا وأنت تردّها نحو الكعبة فطاش عقلي من ذلك الكلام ، ثم دخلت فرأيت جارية لم ير الراؤون أحسن منها وهي مقيدة مسلسلة ، فقلت : ما هذه الحالة ؟ فقالت : يا طبيب القلوب صف لي صفة أنجو بها من المكروب ، فقلت لها : قولي : لا إلـه إلى الله محمد رسول الله فرفعت صوتها بقول : لا إلـه إلا الله محمد رسول الله فتساقطت الأغلال والقيود عنها وتفكك الحديد . فلما رأى أبوها ذلك

قال : ما أحسنك من طبيب وما أحسن دواءك ! بالله عليك داوني بالدواء الذي داويتها به ؟ فقلت : قل لا إلّه إلا الله محمد رسول الله ثم أتت أمها وفرحت وأسلمت وأسلم كل من كان في البلد معهم . فحمدت الله عز وجل على ذلك وعزمت على الخروج فقالت الجارية : يا جنيد لا تعجل عليّ بالخروج فإني سألت الله عز وجلّ أن يتوفاني وأنت حاضر حتى تقف وتصلي عليّ وتقف على دفني ، ثم تشهدت وخرت ميتة رحمة الله عليها :

يا منقذ الجهال من ظلمتها يا خير من حطت به النزال من ذاق حبك لم يزل متلهجا
أنت الإلّه القادر الفعال أنشأتني وهديتني ورحمتني فاغفر فأنت المنعم المفضال

ومننت بالإيمان منك تفضلاً أنت الإلّه وما عداك محال

[وقال عبد الله الرحمن بن جعفر] : كنت بالبصرة أصلي الصلوات الخمس في مسجد بجواري يعرف بمسجد الخشابين وكان له إمام مغربي يدعى أبا سعيد مشهور بالخير ، وكان يتكلم في المسجد بعد صلاة الصبح فخرجت بعض السنين حاجاً إلى بيت الله الحرام وكانت تلك السنة حراً شديداً فكنت في الليل أسبق الركب وأنام حتى يلحقني رفقائي فنمت في بعض الليالي وكنت عادلاً عن الطريق فسار الركب ولم تشعر بي رفقتي ونمت حتى طلعت الشمس ثم انتبهت وأنا لا أدري كيف الطريق فقلت : سيدي ومولاي إلى هنا حملتني وعن بيتك قطعتني ، ثم سرت حتى أعييت وقوي الحر فأيست من الحياة وانطرحت على كثيب رمل أنتظر الموت وإذا إنسان ينادي باسمي فقمت فإذا هو الشيخ أبو سعيد فقال : أنت جائع ؟ فقلت : نعم فناولني رغيفاً سخناً فأكلته فاشتدّ رمقي فعطشت فناولني ركوة فيها ماء ألذ من الشهد وأبرد من الثلج فشربت وغسلت وجهي فعادت إليّ روحي ثم قال : اتبعني فتبعته قليلاً ، وإذا أنا بجدران مكة شرفها الله تعالى ، فقال : البث هنا فالركب يأتيك بعد ثلاثة أيام ثم ناولني رغيفاً ومضى فكنت آكل من ذلك الرغيف لقمة فأشبع فأقام الرغيف معي ثلاثة أيام إلى أن جاء الركب ، فلما وقفت بعرفة رأيت الشيخ أبا سعيد واقفاً عند الصخرات وهو مشغول بالدعاء فسلمت عليه ، فلما فرغ رد عليّ السلام ، وقال : ألك حاجة ؟ قلت : ادع لي فدعا لي ثم نزلنا من الجبل ولم أره بعد ذلك فلما قضيت الحج سرت إلى البصرة ودخلت منزلي وبت ، فلما أصبحت صليت الصبح في المسجد خلف الشيخ أبي سعيد ، فلما فرغ من صلاته سلمت عليه وصافحته فصافحني وعصر يدي ففهمت عنه أن أكتم السر ، وكان في المسجد مؤذن يخدمه كثيراً فسألته عن غيبة الشيخ عن المسجد في أيام الحج فحلف أن الشيخ أبا سعيد لم يقطع الصلوات الخمس في هذا المسجد ، فعلمت أنه من الأبدال السادة الرجال ، وينشد :

أنت في الموضع البعيد قريب هل منيب على رضاك يؤوب

كل وصل خلاف وصلك هجر كل حب خلاف حبك حوب يا إلّهي وعدتي ورجائي
بك يا سيدي تزول الكروب بغيتي من جمال وجهك مرأى ليس إلا به النفوس تطيب

أنت روح القلوب أنت شفاها بك تحيا وتستريح القلوب
بك يدنو البعيد من كل أمر بك تنأى عن المسيء الذنوب
تسمع الصوت حين لا يسمع الصو ت ومن حيثما دعيت تجيب
أنت رب العباد مالك في الملـ ـك شريك ولا عليك رقيب
يا دواء القلوب أنت المداوي يا شفاء السقام أنت الطبيب
جد بعفو ورحمة لكئيب ليس يشكو إلا إليك الكئيب

[قال عبد الصمد البغدادي] : كنت أبحر من بغداد إلى بلاد اليمن وأحج في كل سنة فبينما أنا في بعض السنين في الطريق بين منى وعرفة ، إذ رأيت شاباً حسن الشباب نقي الأثواب كأن وجهه قنديل ، وهو راقد على الرمل وتحت رأسه حجر وهو يعالج سكرات الموت فتقدمت إليه وسلمت عليه وقلت له : ألك حاجة ؟ قال : نعم ، تقيم عندي ساعة حتى أقضي نحبي وألحق بربي فقلت له : ما الذي تريد ؟ فقال : إذا أنا مت فوارني التراب ، وخذ هذه المعضدة من كتفي ، فإذا وصلت إلى صنعاء اليمن فسل عن دار الوزارة فإذا خرجت إليك عجوز وبنات فادفع إليهن هذه المعضدة وقل لهن عثمان الغريب يقرئكم السلام . ثم غاب عن حسه ساعة ثم أفاق وهو يقرأ : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [يس : ٥٢] ثم شهق شهقة فارق فيها الدنيا فغسلته وكفنته ووجهه يضيء ويتلالأ نوراً ثم صليت عليه في جماعة ودفنته ، ثم أخذت المعضدة فلما وصلت إلى صنعاء اليمن سألت عن الدار فخرجت إليّ عجوز وبنات فدفعت إليهن المعضدة . فلما رأينها أخذن بالبكاء والنحيب وخرت العجوز مغشياً عليها ، فلما أفاقت قالت : وأين ذهب صاحب هذه المعضدة فأخبرتها بخبره وما كان منه ، فقالت : هو والله ولدي عثمان وهؤلاء أخواته ترك أهله وحشمه وخدمه وزهد الدنيا وخرج سائحاً على وجهه لا ندري أين ذهب ؟ فجزاك الله عني وعن ولدي خيراً ، ثم بكت وجعلت تقول ؟

يا فقيداً أضحى وحيداً غريبا يا عزيزاً أمسى ذليلاً كئيبا قد هجرت الديار من بعد أنس
وسكنت القفار فرداً سليبا وتغربت في البلاد حزينا بانفراد ولست تدعو مجيبا
منذ فارقتني تنغص عيشي ولقد كنت لي خليلاً حبيبا ليتني مت قبل يومك جهرا
ليتني كنت من حماك قريبا فعليك السلام مني حقا كلما حرك النسيم قضيبا

[إلّهي] إن كنت لا ترحم إلا المجتهدين فمن للمقصرين ، وإن كنت لا تقبل إلا

المخلصين فمن للمخطئين ، وإن كنت لا تكرم إلا المحسنين فمن للمسيئين . إلـهي مـا أعظـم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشد مصيبتي ، أنبه غيري وأنا النائم . سـيدي مـا أغرب قصتي ، أدل غيري وأنا الحائر . إلـهي جد بالعفو على مذكر متكلف وسامع متخلف ، إلـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسـن مـوعظتي إليـك ، أتـراك تقبـل المـدلول تـرد الدليل ، إلـهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك الكريم وارحمنا أجمعين برحمتك يـا أرحـم الـراحمين ، والحمـد الله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس الثالث عشر

في ذكر جهنم ، أعاذنا الله وإياكم منها والمسلمين

الحمد لله الذي وعد من أطاعه بنعيم جنانه ، وتوعد من جحده بجحيم نيرانه وقهر من كفر بقويّ سلطانه وستر من فجر بجميل إحسانه وعذر من اعتذر من قبيح عصيانه وغفر لمن عبر إلى حرم غفرانه وجبر من انكسر لأجل رضوانه ونصر من انتصر بعظيم شأنه وشكر من ذكر بجزيل امتنانه يسبحه الملك بأعوانه والفلك بدورانه والبرق بلمعانه والسحاب بسريانه والريح بخفقانـه والنهر بجزيل امتنانه يسبحه الملك بأعوانه والفلك بدورانه والبرق بلمعانـه والسـحاب بسـريانه والنهر بجريانه والشجر بأغصانه والزهر بألوانه والطير بأشجانه والروض بغدرانه والـبر بكثبانـه والبحر بحيتانه كل يسبح بغريب لغته ولسانه :

وكـــل مقـــر في فصـــيح بيانـــه بتســـبيحه جهـــراً بنطـــق لســـانه
هو الواحد الفرد الـذي قـد تفـردت صـــــنائعه في خلقـــــه وزمانـــــه
له الفرش والعرش الرفيع على العلا لـــه المثـــل الأعلـــى علـــواً لشـــأنه

فسبحانه من إلـه عظيم حيّ قيوم ، قـدر الـرزق المقسـوم ، والأجـل المحتـوم ، والوقـت المعلوم ، وحير في إدراك معرفته العقول والفهوم . خلق الجنة من نور رحمته لأقوام سقاهم من الرحيق المختوم ، وخلق النار من سطوة غضبه لأقوام كتب لهم بالشقاوة المرسـوم ، لهـم فيهـا دمار وعذاب وتوبيخ وعقاب لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم فسبحانه مـن إلـه لم يزل عظيماً قوياً جليلاً بهياً واحداً في ملكه سرمدياً جعل الجنة لمن أطاعه ولو كـان عبـداً حبشـياً والنار لمن عصاه ولو كان شريفاً قرشياً جعلها مسكن المشركين والكفار ومأوى الأشقياء الفجـار

كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ [غافر : ٤٦] فكيف الخلاص منها ، وقد قال حين تحققها منكرها وجاحدها ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم : ٧١] فهي بيت الأحزان ، والخزي والهوان ، ليس لجاحدها منها أمان ، وحق عليهم الخلود فيها والنسيان ، ينادون فيها وهم يسمعون ﴿ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن : ٤٣ – ٤٤] يا لها من دار محتوم بلاؤها ، معدوم رجاؤها ، مظلم مسالكها ، مبهم مهالكها شراب أهلها الحميم ، وعذاب أهلها أبداً مقيم ، لهم فيها بالويل ضجيج ، وبالثبور دعاء وعجيج أمانيهم فيها هلاك ، وما لهم من أسرها فكاك ، ينادون من فجاجها وشعابها ، من ترادف عذابها : يا مالك حق علينا الوعيد . يا مالك قد أثقلنا الحديد ، يا مالك قد نضجت منا الجلود ، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود ، قد أثقلتنا القيود ، وأيقنوا فيها بالخلود ، وباؤوا بغضب الملك المعبود ، وقد جاوروا الفجار ، وخالطوا الكفار ، فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود ، مسكن أهل الجحود ، والارتياب ، طعامهم فيها الزقوم ، وشرابهم فيها الصديد والرصاص المذاب ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ ﴾ [النساء : ٥٦]

النار منزل أهل الكفر كلهم ... طباقها سبعة مسودّة الحفر ... جهنم ولظى من بعدها حطمه
ثم السعير وكل الهول في سقر ... وتحت ذاك جحيمٌ ثم هاوية ... تهوي بهم أبداً في حر مستعر
فيها العقارب والحيات قد تركت ... جلودهم كالبغال الدهم والحمر ... فيها السلاسل والأغلال تجمعهم
مع الشياطين جهراً جمع منقهر ... لهم طعام مِنَ الزقوم يعلق في ... حلوقهم شوكه كالصاب والصبر

سوداء مظلمة شنعاء موحشة ... همّاء محرقة لواحة البشر
أعاذنا الله منها ثم عوضنا ... بجنة الخلد بين الروض والزهر

[وعن أبي هريرة رضي الله عنه] عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى دعا جبريل فأرسله إلى الجنة ، وقال : انظر إليها وما أعددت لأهلها فيها ، فنظر إليها ورجع فقال : وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فحفت بالمكاره فقال له : ارجع فرجع فقال : وعزتك وجلالك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد ، ثم أرسله إلى النار وقال له : انظر إليها وما أعددت لأهلها فيها فنظر إليها وقال : وعزتك وجلالك لا يدخلها أحد فحفت بالشهوات ، ثم قال له : عد إليها فانظر فعاد ورجع فقال : وعزتك وجلالك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت وألف عام حتى احمرت ، وألف عام حتى اسودت فهي سوداء كالليل المظلم » . وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « ناركم هذه جزء من

سبعين جزءاً من تلك النار ولولا أنها ضربت في البحر مرتين ما انتفعتم منها بشيء » . ويروي مسلم من حديث شقيق عن عبد الله بن عمر ، قال : قال النبي ﷺ : « يؤتى بجهنم يوم القيامة ولها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها » . وفي حديث مسلم عن أبي هريرة قال : « كنا مع النبي ﷺ إذ سمع وجبة ، فقال : أتدرون ما هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : هذا حجر رُمي في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار إلى الآن حتى وصل إلى قعرها » .

[إخواني] أما تعتبرون بهذا الأحوال أما تشفقون من نار جهنم والأنكال ، أما تحذرون سلاسلها والأغلال ، واعجباه لمن كان في الجنة في ظهر أبيه آدم كيف يدخل ناراً وقودها الناس والحجارة :

إذا برزت ليوم العرض نار ... لها الناس الوقود مع الحجاره
يفرّ المرء حقاً من أخيه ... وينكر في المعاد من استزاره
فلا الخل الحميم يغيث خلاً ... ولا الجار المجير يجير جاره
وقد برز الجليل لفصل حكم ... ونشرت الصحائف مستطاره
فيفتضح المسيء بقبح فعل ... ومن يك محسناً فله البشاره

[ويروى] أن لهب النار يرفع أهل النار حتى يطيروا كما الشرر فإذا رفعهم أشرفوا على أهل الجنة وبينهم حجاب فينادي أهل الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا : نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين ، وينادي أصحاب النار أصحاب الجنة حين يرون الأنهار تطرد بينهم أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا : إن الله حرمها على الكافرين فتردهم ملائكة العذاب بمقامع من حديد إلى قعر النار قاله بعض المفسرين في قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة : ٢٠] وذكر الترمذي من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ثم قال النبي ﷺ : « لو قطرت قطرة من الزقوم في الدنيا لأفسدتها وأفسدت على أهلها معايشهم ، فكيف من يكون ذلك طعامهم » . وذكر الترمذي من حديث ابن عباس أيضاً ، قال : قال النبي ﷺ : « غلظ جلد الكافر اثنان وسبعون ذراعاً وضرسه مثل جبل أحد وإنّ مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة » أعاذنا الله وإياكم من النار ، ومن مقام الكفار فيها والفجار فلو رأيت أهل جهنم وشرابهم الحميم ، وكلما اشتد جوعهم ليس لهم

طعام إلى من ضريع ، يا أهل الذنوب و الخطايا ألكم صبر على النار ؟ كلا إنها لظى يساقون إليها من كل مكان ﴿ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الفرقان : ١٢ - ١٣ - ١٤] فلو رأيتهم ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] حلت بهم المحن وظهر عليهم الغبار وجرت دموعهم من سحائب جفونهم كالأمطار والقلق قد أحاط بهم من جميع الأقطار :

أما سمعت بأكباد لهم صعدت ... خوفاً من النار فانحطت إلى النار
أما سمعت بضيق في مجالسهم ... ولا قرار لهم يا صاح في النار
أما سمعت بحيات تدب بها ... إليهم خلقت من مارج النار
فيا إلهي بأحكام وما سبقت ... به قديماً من الجنات والنار
أدعوك أن تحمي العبد الضعيف فما ... للعبد من جسد يقوى على النار
والشمس ما لي عليها قط من جلد ... فكيف يصبر ذو ضعف على النار

ويروى من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا سيق أهل النار إلى النار فتلقطهم بعنف فتنفحهم نفحة لم تترك لحماً على عظم إلا أبانته عن العروق » وهم في توبيخ وعتاب وفي سجن وعذاب وفي حزن وعقاب » كما قال الله تعالى في محكم الكتاب : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴾ [النساء : ٥٦] فإنهم كانوا يفرحون بدار الغرور وينسون النفخ في الصور ويغترون بالأماني والزور ، قال في حقهم من يعدل في حكمه ولا يجور : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴾ [فاطر : ٣٦] لهم فيها بكاء وزفير ، وعذاب سعير ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر : ٣٧] فيا من سمع بذكر النار حتى كأنه شاهدها عياناً ، ما هذا الأمل والرحيل قد تدانى ؟ يا مقبلاً على لذاته ولم يأخذ من هول الموقف أماناً :

اذكر وقوفك يوم الحشر عرياناً ... مستضعفاً فارغ الأحشاء حيرانا
النار تزفر من غيظ ومن حرق ... على العصاة وتلقى الرب غضبانا
في موقف قد تجلى فيه حاكمه ... وقال فيه لمن قد لج طغيانا
اقرأ كتابك يا عبدي على مهل ... وانظر إليه ترى فيه الذي كانا

لمـــا قـــرأت كتابـــاً لا يغـــادر لي ... مـا كـان في السـر أو مـا كـان إعلانـا
قـال الجليـل خـذوه يـا ملائكـتي ... مـــروا بـــه لألـــيم النـــار ظمآنـــا
يـــا رب لا تخزنـــا يـــوم المعـــاد ولا ... تجعـــل لنـــارك فينـــا اليـــوم ســـلطانا

وقال رسول الله ﷺ : « إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً وأنها تتعوذ من نار جهنم في كل يوم سبعين مرة » . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « اذكروا من النار ما شئتم فلا تذكرون منها شيئاً إلا وهي أشد منه » ، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : إن أهل النار ليدعون مالكاً فلا يرد عليهم جواباً أربعين عاماً ثم يرد عليهم ﴿ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾ [الزخرف ٧٧] يعني دائمون أبداً ، ثم يدعون ربهم فيقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون ١٠٦ - ١٠٧] فلا يجيبهم مقدار ما كانت الدنيا ثم يجيبهم : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] . قال : فوالله ما ينطقون بعدها بكلمة واحدة ولم يكن لهم بعد ذلك إلا الزفير والشهيق في النار ، شبه أصواتهم بأصوات الحمير أوّلها زفير وآخرها شهيق . قال قتادة : يا قوم هل لكم بذا طاقة أم هل لكم على هذا صبر ؟ يا قوم طاعة الله عليكم أهون من هذا فأطيعوه . وعن ميمون بن مهران أنه قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٤٣] . وضع سلمان يده على رأسه ثم خرج هائماً ثلاثة أيام لا يقدر عليه أحد حتى جيء به . ويروى أن أهل النار يجزعون ألف سنة ثم يقولون : كنا في الدنيا إذا صبرنا أتانا الفرج فيصبرون ألف سنة فلا يخفف عنهم شيئاً فيقولون : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ [إبراهيم : ٢١] فيدعون ألف سنة فلا يأتيهم الغيث لما بهم من العطش وشدّة العذاب لكي يزول عنهم بعض الحرارة من العطش فيتضرعون ألف سنة ، فإذا تضرعوا يقول الله تعالى لجبريل : يا جبريل أيّ شيء يطلبون وهو أعلم ؟ فيقول : يا رب يطلبون الغيث فتظهر لهم سحابة حمراء فيظنون أنهم يمطرون بها فيرسل الله عليهم فيها العقارب كأمثال البغال فتلدغ الواحد منهم لدغة فلا يذهب الوجع ألف سنة ثم يسألون الله الغيث فتظهر لهم سحابة سوداء فيقولون : هذه سحابة المطر فيرسل الله عليهم فيها حيات كأمثال الإبل كلما لسعت لسعة لا يذهب وجعها ألف سنة وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ [النحل : ٨٨] يعني بما كانوا يكفرون ويعصون الله فمن أراد أن ينجو من عذاب الله وينال ثوابه فعليه بالصبر على شدائد الدنيا فإن الجنة قد حفت بالمكاره والنار حفت بالشهوات .

[إخواني] مثلوا أنفسكم وقد وقفتم على النار وقلتم : ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا ﴾

[الأنعام : ٢٧] كلها ثم صحتم : ﴿ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا ﴾ وقد صرفتم همتكم في طلب الدنيا وأعرضتم عن أخراكم بالكلية ، فكيف بكم ﴿ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ﴾ [الأنعام : ٤٦] .

يا نفس توبي فإني الموت قد حانا واعصي الهوى فإن الهوى ما زال فتانا

[**حكي**] أنه لما دخل هارون الرشيد مكة ابتداء بالطواف ومنع الناس من الطواف فسبقه أعرابي وجعل يطوف معه فشق ذلك على أمير المؤمنين والتفت إلى حاجبه كالمنكر عليه ، فقال الحاجب : يا أعرابيّ خلّ الطواف ليطوف أمير المؤمنين ، فقال الأعرابي : إن الله ساوى بين الأنام في هذا المقام والبيت الحرام ، فقال تعالى : ﴿ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ فلما سمع الرشيد ذلك من الأعرابي أمر حاجبه بالكف عنه ثم جاء الرشيد إلى الحجر الأسود ليستلمه فسبقه الأعرابي فاستلمه ثم أتى على المقام ليصلي فيه فسبقه فصلى فيه فلما فرغ الرشيد من صلاته وطوافه قال للحاجب : ائتني بالأعرابي فأتى الحاجب الأعرابي وقال له : أجب أمير المؤمنين ، فقال : ما لي إليه حاجة إن كانت له حاجة فهو أحق بالقيام إليها ، فانصرف الحاجب مغضباً ثم قص على أمير المؤمنين حديثه ، فقال : صدق نحن أحق بالقيام والسعي إليه ، ثم نهض أمير المؤمنين والحاجب بين يديه حتى وقف بإزاء الأعرابي وسلم عليه فرد السلام ، فقال له الرشيد : يا أخا العرب أأجلس هنا بأمرك ؟ فقال له الأعرابي : ليس البيت بيتي ولا الحرم حرمي ، البيت بيت الله والحرم حرم الله ، وكلنا فيه سواء إن شئت تجلس وإن شئت تنصرف . قال : فعظم ذلك على الرشيد حيث سمع ما لم يخطر في ذهنه وما ظن أحداً يواجهه بمثل ذلك ، فجلس إلى جانبه وقال له : يا أعرابي أريد أن أسألك عن فرضك فإن قمت به فأنت متعنت ؟ قال : فعجب الرشيد من سرعة جوابه وقال : به سؤال متعلم . فقال الأعرابي : قم واجلس مقام السائل من المسؤول . قال : فقام الرشيد وجثا على ركبتيه بين يدي الأعرابي ، فقال له : قد جلست سل عما بدا لك . فقال : أخبرني عما فرضه الله عليك . فقال له : تسألني عن أي فرض ؟ أعن فرض واحد أم خمسة فروض ، أم عن سبعة عشر فرضاً ، أم عن أربعة وثلاثين فرضاً ، أم عن أربعة وتسعين فرضاً ، أم عن واحدة من أربعين ، أم عن واحدة في طول العمر ، أم عن خمسة من مائتين ، قال : فضحك الرشيد مستهزئاً به . ثم قال : سألتك عن فرض فأتيتني بحساب الدهر . قال : يا هارون لولا أن الدين حساب لما أخذ الله الخلائق بالحساب يوم القيامة قال تعالى : ﴿ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] قال : فظهر

الغضب في وجه أمير المؤمنين ، وتغير من حال إلى حال حين قال له : يا هارون ، ولم يقل يا أمير المؤمنين وبلغ منه ذلك مبلغاً شديداً ، غير أن الله عصمه من ذلك الغضب ورجع إلى عقله لما علم أن الله هو الذي أنطقه بذلك ، ثم قال الرشيد : وتربة آبائي وأجدادي إن لم تفسر لي ما قلت وإلا أمرت بضرب عنقك بين الصفا والمروة ، فقال له الحاجب : يا أمير المؤمنين اعف عنه وهبه لله تعالى لأجل هذا المقام الشريف . قال : فضحك الأعرابي من قولهما حتى استلقى على قفاه ، فقال له الرشيد : ممّ تضحك ؟ قال : عجباً منكما فإن أحدكما يستوهب أجلاً قد حضر والآخر يستعجل آجلاً لم يحضر ، فلما سمع الرشيد ما سمع منه هانت عليه الدنيا ثم قال له : سألتك بالله إلا ما فسرت لي ما قلت ، فقد تشوقت نفسي إلى شرحه . فقال الأعرابي : أما سؤالك عما فرض الله عليّ فقد فرض الله عليّ فروضاً كثيرة ، فقولي لك عن فرض واحد فهو دين الإسلام وأما قولي لك عن خمسة فروض فهي الصلوات الخمس ، وأما قولي لك عن سبعة عشر فهي سبع عشرة ركعة في اليوم والليلة ، وأما قولي لك عن أربع وثلاثين فهي السجدات ، وأما قولي لك عن أربع وتسعين فهي التكبيرات ، وأما قولي لك عن واحدة من أربعين فهي الزكاة دينار من أربعين ديناراً ، وأما قولي لك عن واحدة في طول العمر فهي حجة واحدة في طول العمر على الإنسان ، وأما قولي لك عن خمسة من مائتين فهي زكاة الورق ، قال : فامتلأ الرشيد فرحاً وسروراً من تفسير هذه المسائل ومن حسن كلام الأعرابي وعظم فطنته واستعظمه في عينه ، ثم إن الأعرابي قال للرشيد : سألتني فأجبتك فإذا سألتك أنا تجيبني ؟ فقال الرشيد : سل ، فقال له الأعرابي : ما يقول أمير المؤمنين في رجل نظر إلى امرأة وقت الصبح فكانت عليه حراماً ، فلما كان الظهر حلت له ، فلما كان العصر حرمت عليه ، فإذا كان المغرب حلت له ، فإذا كان العشاء حرمت عليه فإذا كان الفجر حلت له ، فإذا كان الظهر حرمت عليه ، فلما كان العَصر حلت له ، فلمّا كان المغرب حرمت عليه ، فلما كان العشاء حلت له ؟ فقال له الرشيد : لقد أوقعتني في بحر لا يخلصني منه غيرك ، فقال له الأعرابي : أنت أمير المؤمنين ، وليس أحد فوقك ، ولا ينبغي أن تعجز عن شيء ، فكيف تعجز عن مسألتي ؟ فقال له الرشيد : لقد عظم قدرك العلم ورفع ذكرك ، فأريد أن تفسر لي ما ذكرت إكراماً لي ولهذا البيت الشريف . فقال الأعرابي : حباً وكرامة : أما قولي في رجل نظر إلى امرأة وقت الصبح فكانت عليه حراماً ، فهذا رجل نظر إلى أمة غيره فهي عليه حرام ، فلما كان الظهر اشتراها فحلت له ، فلما كان العصر أعتقها فحرمت عليه ، فلما كان المغرب تزوجها فحلت له ، فلما كان العشاء طلقها فحرمت عليه فلما كان الفجر راجعها فحلت له ، فلما كان الظهر ارتد عن دين الإسلام فحرمت عليه فلما كان العصر استتيب فرجع فحلت له ، فلما

كان المغرب ارتدت هي فحرمت عليه ، فلما كان العشاء استتيبت فرجعت فحلت له . قال : فتعجب الرشيد وفرح به واشتد عجبه ثم أمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما حضرت قال : لا حاجة لي بها ردها إلى أصحابها ، قال : فهل تريد أن أجري لك جراية تكفيك مدة حياتك ؟ قال : الذي أجرى عليك يجري عليّ ، قال : فإن كان عليك دين قضيناه فلم يقبل منه شيئاً ثم أنشأ يقول :

هب الدينا تواتينا سنينا ... فتكدر تارة وتلذ حينا
فما أرضى بشيء ليس يبقى ... وأتركه غداً للوارثينا
كأني بالتراب عليّ يحثى ... وبالإخوان حولي نائحينا
ويوم تزفر النيران فيه ... وتقسم جهرة للسامعينا
وعزة خالقي وجلال ربي ... لأنتقمنّ منكم أجمعينا

فلما فرغ من إنشاده تأوه الرشيد وسأل عنه وعن أهله وبلاده فأخبروه أنه موسى الرضا ابن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، وكان تزيا بزي الأعراب زهداً في الدنيا ، وتورعاً عنها فقام وقبله بين عينيه ، ثم قرأ : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

[**إخواني**] هؤلاء قوم كانوا يخفون حالهم بين الأنام وهم شعث غبر لا يؤبه لهم وهم عند الله في أرفع مقام ، هذه صفاتهم إذ قبلوا فكيف صفاتك يا مردود ؟ هذه صفاتهم إذ قربوا فكيف صفاتك يا مطرود ؟ هذه صفاتهم فنح على نفسك يا منكود ، ويحك يا مسكين أنت في النهار في البطالة وفي الليل من جملة الرقود ، وينشد :

يا عليماً بما يكنّ الضمير ... أنت نعم المولى ونعم النصير
من لعبد قد أوبقته الخطايا ... من عذاب يا سيدي يستجير
هل لأهل الذنوب عنك محيص ... ونفوس الورى إليك تصير
حسبنا في غد من الذنب مولى ... علمنا أنه الرحيم الغفور

باب صفة الفقير

من صفة الفقير في الدنيا أن يكون صائماً قائماً راكعاً ساجداً طالباً راغباً صبوراً شكوراً رحيماً لطيفاً وحيداً ، قليل الكلام ، قليل الطعام ، كثير الذكر ، مليح الفكر بعيد الأوطان ، قليل الإخوان ، كثير الأحزان ، معرضاً عن متاع الدنيا وشبهاتها ، مخلصاً من مكرها وشهواتها ، لا يبيع ولا يشتري ، ولا أخذ له ولا عطاء ، إن حضر لا يعرف ، وإن غاب لا يذكر ، كثير الخلوة غزير الدمعة لا يملك شيئاً ولا يملكه شيء محاسباً لنفسه مراقباً لربه ، أنفاسه محروسة وربوع قلبه مأنوسة ، لا يطيل في الدنيا فكره ، وينظر فيها بعين العبرة ، قليل الشهوات ، تارك الشبهات ، ملازم الطاعة ، كثير القناعة ، تارك الحيلة ، قليل الوسيلة ، ليس له حاجة بالناس أبد الأبد ولا يؤخر من يومه إلى غد متوجهاً لمولاه ، لا يعبد إلا إياه ، خرج من الدنيا خروج صحيح ، وأقبل على الله بوجه مليح ، ليس له بلغة ، ولا يملك ذرة ، مشتغلاً بالله ، معرضاً عما سواه ، لا يعرف النفاق ، ولا يمشي في الأسواق ، يسلك الطريق بلا تعويق ، بدنه نحيف ، وجسمه لطيف ، نظره عفيف ، علم العلم والعمل ، وترك الدنيا وانعزل ، جاهد فشاهد ، مسارعاً إلى الملكوت ، مراقب الحي الذي لا يموت لا يمشي مرحاً ولا يرى فرحاً ، بعيداً عن الناس وأكثر منهم الإياس سلم فسلم لا متكبراً ولا متجبراً صادق المقال حسن الفعال فارق العالم وراح وتركهم واستراح ، أنس بوحوش الفلا وأيس من الملا يطوف السهل والجبل قصير الأمل لا يملك من الدنيا حبة ولا ينظر إليها بعين المحبة هجر الأحباب والأصهار وأنس بوحوش القفار أقام على نفسه الحدّ ولزم طريق الجد ، علم أن القلب بيت الرب فطهره وأخلاه فتجلى فيه إذ لم يجد فيه سواه ولو أعُطيَ الدنيا بما فيها لم ينظر إليها فهذا هو الفقير . وقيل : أربع من كنوز الجنة : كتمان المصيبة وكتمان الفاقة وكتمان الصدقة وكتمان الألم . وقيل : من كمال المرء خصلتان : لا يدخله الرضا في الباطل ولا يخرجه الغضب عن الحق . وقيل : العجلة من الشيطان إلا في ستة أشياء تعجيل الصلاة إذا دخل وقتها وقرى الضيف إذا دخل وتجهيز الميت إذا مات وتزويج البنت إذا أدركت وقضاء الدين إذا وجب والتوبة من الذنب إذا وقع .

المجلس الرابع عشر

في ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفقراء والأولياء رضي الله تعالى عنهم أجمعين ونفعنا بهم

الحمد لله الذي ذرأ وبرأ ، وصور العالم صوراً ، وخلق من الماء بشراً ، وخرق له سمعاً وبصراً وأمضى بقدرته قضاء وقدراً ، وأظهر بحكمته من آياته عبراً ، وألبس العمال من ملابس الأعمال ثوباً مفتخراً ، وجبر من خضع لديه ووقف بالذلة بين يديه منكسراً ، وأغنى بفضله من تمسك بحبله وأمسى إليه مفتقراً ، فسبحانه من إلـه ليس في قدرته مراً ، ولا في واحدانيته أمتراً ، وهو السميع البصير الذي يسمع ويرى ، نظر إلى الماء فعاد من الهيبة حجراً ، وإلى الجماد فسال برحمته كالسيل وجرى ، ورفع قبة السماء بغير عمد كما ترى ، وجعل فيها سراجاً وقمراً ، ورصعها بدراري الكواكب فحكت دراريها دراً ، وأرسل الرياح بين يدي رحمته نشراً ، وأذن للنجم أن يسري فسرى ، وإلى السحاب أن يحمل مطراً ، وحرس قلعة السماء بحراسة الشهب ، فلم يسمع مسترق السمع منها خبراً ، وحير الفكر في إدراكه فرجع مقهقراً ، وبقي في بيداء التيه محيراً ، وعذب من كفر واجترا ، وقرب من أناب ووحد وتذلل ولم يبد تكبراً ، وأرسل الصواعق على مقدمة نقمته عبرا ، وألمع البرق بترادف تألف نعمته مبشراً ، وأنطق الرعد بعواصف قدرته مزمجراً . هبت من خزائن كرمه نفحات نسمات نعمه فاستنشق العارفون منها عنبراً عطراً ، فجاء بالسر المألوف معروفاً منكراً ، وجعل لأبي يزيد التأييد فأصبح على دنياه بتقواه منتصراً ، وبات الشبلي لعرائس المحبة يستجلي فظل ممزقاً متحيراً ، وجند الجنيد من أجناده إلى لقاء أنداده عسكراً ، فشمر في الخدمة الذيل وظل باكياً طول الليل متحسراً ، وخص ذا النون بالسر المصون فهام ولم يجد مصطبراً ، وشرب الحلاج صرف المزاج فجرى منه ما جرى ، فلما حصل لهم من المحبة الذوق هبت نسمات الشوق ، وروت لهم عن الحبيب خبراً ، وأخبرتهم أن حبيبهم نظر إليهم وتجلى عليهم مسحراً ، فالراجي في الليل الداجي قد بسط كفاً منكسراً ، والجاني بالقلب العاني قد نكس رأساً معتذراً ، والعاصي قد خاف من يوم الأخذ بالنواصي فأطرق حياءً وحذراً ، والمذنب ينوح على ذنوبه ويقطع الليل بالبكاء على عيوبه بكاءً وسهراً :

لا ذقـت يـا صـاح لذيـذ الكـرى أو يصـفح الـرحمن عمـا جـرى

ويبعد الهجر ويدنو اللقا ويفرح القلب بطيب القرى
ويرجع الود الذي بيننا والعيش صاف بعدما كدرا
متى بشير الصلح يأتي لنا ويرجع العود وقد أثمرا
وألصق الخدّ بأبوابهم معفراً في ترب ذاك الثرى
ها قد بسطت راحتي سائلاً وقد مددت الكف مستمطرا
يا سادتي قد تبت من زلتي وقد أتيت الآن مستغفرا
فسامحوني كرماً منكم فعهدكم عندي وثيق العرى
ما لي سوى أبوابكم سادتي وقد تشفعت بخير الورى

قيل : لما آن نزول البلا على سيدنا أيوب المبتلى ، أتى طاوس الملائكة جبريل بأمر الملك الجليل ، فقال له : يا أيوب سينزل بك مولاك من البلاء والأهوال ما يعجز عن حمله الجبال ، فقال أيوب عليه السلام : إن دمت على مواصلة الحبيب ، سأصبر حتى يقال عجب عجيب ، فنودي : يا أيوب استعدّ لبلائي ، واصبر لنزول حكمي وقضائي . وكان السبب في ابتلائه أن إبليس لعنه الله حسده وتحيل عليه بأنواع المكر والحيل فلم يقدر عليه ، فقال : إلـهي إنما شكر أيوب وسبب طاعته لك أن وسعت عليه في الأموال والأرزاق والأولاد والعافية . فلو سلبته ذلك ما أطاعك طرفة عين ، فقال له الحق جل جلاله : اذهب فقد سلطتك عليه وإنه لم يغيره ذلك فأول يوم ابتلاه أخذ الأولاد فزاد في الخدمة واجتهد غاية الاجتهاد ، وفي اليوم الثاني أخذ الأموال فأحرقها ومزقها ، فقال أيوب : العطايا عطاياه إن شاء سلبها وإن شاء أطلقها ، وفي اليوم الثالث نفخ إبليس في جسده وهو في صلاة الفجر فلعب الدود في جميع بدنه ولم يزل يذكر الله في سره وعلنه فلما تمكن البلاء من جسده بعد ذهاب ماله وولده قال : الحمد لله الذي اصطفاني لخدمته ، ومن عليّ بفضله وخيرته ، فلم يشغلني بغيره ، ولم يزل أيوب ذاكراً ولربه حامداً وشاكراً إلى أن تمزق جلده وذاب لحمه ودق عظمه وصار الدود يغدو في جسده ويروح وهو بالشكوى لا يبدي ولا يبوح وكان كلما سقط من جسده دودة إلى الأرض ردها إلى مكانها يقول لها : كلي أيتها الدودة فهذه مائدة جسدي ممدودة ، فنزل عليه الأمين جبريل عليه السلام فسلم عليه فلم يرد السلام لاشتغال لسانه عن الكلام ثم سلم عليه ثانياً فرد عليه السلام ، فقال له جبريل عليه السلام : يا نبي الله ما منعك من رد السلام في المرة الأولى ؟ فقال : يا أخي يا جبريل : إن الملك الودود أرسل إليّ أضيافاً من الدود لكي أطعمهم من لحمي على مائدة جلدي وعظمي فكان بعض الأضياف من الدود على طرف لساني فخشيت أن أردّ عليك

السلام فتسقط من مكانها فأمنعها حقها وأكلها فأطالب برزقها فأكون عاصياً لربي [١] :

عـــذبونا ثم قـــالوا في المـــلا أنـــت راض بـــالبلا قلـــت بلـــى
أنـــا راض بـــالبلا لكـــن علـــى أن تـــذيبوا القلـــب بـــالهجر فـــلا
عـــذبوا إن شـــئتمو أو فـــارحموا عـــذب التعـــذيب عنـــدي وحـــلا

[إخواني] البلاء يظهر أحوال الرجال وما أسرع ما يفتضح المدعي ، هذا أيوب نبيّ الله أرسل عليه سبعين ألف نوع من العذاب والبلاء فصبر وما شكا له ضيراً ، واسمع يا من تضر به شوكة فلا يطيق لها صبراً فأيوب المبتلى جرّبه نقاد الورى محك الابتلاء فزاد في الخدمة وعلا ، أخذ منه المال فما زاغ عن المحبة ولا مال ، وأخذ منه الولد فزاد في الخدمة واجتهد ورضي بجميع المحن وما باح في شكواه بسر ولا علن ، نودي : يا أيوب أين المكروب وقد صبرت على بلائنا وسلمت لقضائنا سنردّ عليك مالك وولدك ونعافي من البلاء جسدك ونكتب اسمك في محكم الكتاب وننشر ذكرك في ديوان الأحباب ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [ص : ٤٢] .

أهـــل الـــبلاء موكـــل بهـــم الـــبلا في هـــذه الـــدنيا يحـــل معجـــلا
مـــا ضـــرهم مـــا كابـــدوه مـــن العنـــا حـــتى بـــدار الخلـــد عنـــهم حـــوّلا
يتمتعـــون بضـــرهم فلأجـــل ذا قـــد راق عنـــدهم العـــذاب وقـــد حـــلا
وإذا ابـــتلاهم بـــالبلاء يرونـــه نعمـــاً وجـــوداً دائمـــاً وتفضـــلا
والأنبيـــا صـــبروا علـــى بلـــواهم ســـرّاً وإعلانـــاً فهـــم أهـــل الـــولا

حكي أن إبراهيم عليه السلام لما قال : رب أرني كيف تحيي الموتى ؟ قيل له : يا إبراهيم أنت شاك في قدرتنا حتى تقف على باب حجتنا وتقول أرني ؟ فقال : يا رب أنت أريتني بعين بصيرتي فأرني بعين بصري لأجمع بين النظرين فأمره الله تعالى أن يأخذ أربعة من الطير ويذبحها ويمزقها ويفرّق أجزاءها ويجعل على كل جبل منهن جزءاً وأمره أن يأخذ رؤوسهن فيجعلن بين أصابعه ويدعوهنّ ففعل ذلك فهب نسيم من جانب القدرة وجمع تلك الأجزاء المتفرقة واللحوم المتمزقة وأتوا نحوه وعطف كل منهم على رأسه من بين أصابعه ، ولما صاروا أحياء بقدرة الله تعالى عكفوا على رأس إبراهيم عليه السلام ونادوه بلسان فصيح وقلب جريح : أي شيء أردت منا حتى سفكت دماءنا يا إبراهيم ؟ تأدب فربما باسطك مثل ما باسطته ففي تلك الليلة رأى ذبح ولده فكأن الله تعالى يقول : يا إبراهيم نحن أريناك إحياء الموتى فأرنا إماتة الأحياء

(١) هذا الكلام لا يجوز في حق الأنبياء لأنه من الإسرائيليات .

فقال : ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ [الصافات : ١٠٢] فاستسلم للقضاء وصبر و ﴿ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] يا أبت من ذا الذي يطيق يعترض على الحاكم فيما حكم يا أبت إن كان مولاي راضياً عني وقد اختار ذلك مني فامض لما أمرت معوّلاً ، فقد طاب الموت وحلا ثم أنشد لسان الحال هذه الأبيات :

أما والذي لدمي حلا لقد خص أهل الولا بالبلا لئن ذقت فيك كؤوس الحمام
لما قلت يوماً لساقيه لا وإني لن أشتكي في الهوى ولو قدّني مفصلاً مفصلا

رضيت وحقك كل الرضا إذا كان يرضيك أن أقتلا

[حكي] أن موسى عليه السلام لما شرب كأس المدام من الكلام ، وكان قد خرج ليقتبس النار وقد سبقت له الأقدار بالعناية من الجبار ، فلما أتى الشجرة ونفسه للأنوار مرتقبة منتظرة سمع النداء : يا موسى فوجد بذلك قرباً وأنساً وظل متفكراً في أيّ جهة يقرب أو يأتي فسمع النداء من جميع الجهات : يا موسى لا بأس عليك ﴿ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ [طه : ١٢] موضع لا يطرقه من بالمعاصي تدنس ولا جاءه مستوحش إلا يأنس ثم سمع النداء : يا موسى ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ ﴾ فاعرفني ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾ [طه : ١٤] وأنا إلـهك العظيم فعظمني ، وأنا الملك الرزاق فلا تسأل غيري واسألني ، وأنا شديد العقاب فاحذرني وأنا جليس لمن ذكرني فاذكرني . قال موسى : يا رب دللتني عليك وقربتني إليك فأرني ﴿ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وينشد :

طلعت شموس شواهدي لما شهدت خيامهم
وبدت لواعج لوعتي لما سمعت كلامهم وفنيت عن بشريتي
لما بدت أعلامهم ما ضرّهم لو أرسلوا مع النسيم سلامهم

[إخواني] الطريق عسرة المسالك ، ضيقة على السالك ، فبكى فيها آدم ، وناح لأجلها نوح ، ورُميَ في النار إبراهيم الخليل ، وأضجع للذبح إسماعيل ، وبيع يوسف ، ونشر زكريا ، وذبح يحيى ، وابتلي أيوب ، وهام مع الوحش عيسى ، وعالج الفقر محمد عليه الصلاة والسلام . يا أخي أول قدم في الطريق بذل الروح ، هذه الجادة ، فأين السالك ، وهذا القميص ، فأين يعقوب . هذا جبل طور سينا ، فأين موسى يا جنيد احضر يا شبلي اسمع يا ابن أدهم أقبل :

قف بالديار فهذه أطلالهم تبكي الأحبة حسرة وتشوقا

كم قد وقفت بها أسائل مخبراً عن أهلها أو صادقاً أو مشفقا
فأجابني داعي الهوى في رسمها فارقت من تهوى فعز الملتقى

[فقال الشبلي رحمة الله عليه] : بينما أنا أسيح في بعض الجبال إذ رأيت ريحانة العابدة ، وهي تنشد هذا البيت :

أحضرتني فيك لكن غيبتي في التجلي

قال : فنظرت يميناً وشمالاً وفتشت عليها فرأيتها فسلمت عليها فردت عليّ السلام . فقلت : ريحانة ! فقالت : لبيك يا شبلي . فقلت : على من تفتشين ؟ فقالت : على ريحانة ، فقلت لها : ألست ريحانة ؟ فقالت : بلى ولكن يا شبلي منذ قرب ودنا وقعت في العنا وصرت لا أعرف أين أنا ، فغبت عن وجودي ، وضعت مني وصرت أسائل الركبان عني فلا أجد من يخبرني عني فقلت : عودي يجمع عليك فقد رفعت الأعلام إليك فقالت : يا شبلي لقد سألت عناصري ، فلم أجد فيهم أحداً ناصري ، وسألت الحواس فإذا هم سكارى من غير كاس ، وسألت فهمي فدلني على وهمي ، وسألت سري فقال لا أدري وسألت فؤادي فما بلغني مرادي ، وسألت قلبي فاستغرق وقال حسبي لا أتكلم ولا أبدي ، ثم قالت : يا شبلي من هيبة ربي لم يبق حيّ إلا وسألته أن يوصلني إليّ ويدلني عليّ فعجز الكل عن لفظي وتركن حظي ، فإن كنت يا شبلي تعرف مكاني فقد دعاني ترجماني فقلت لها : يا ريحانة قرارة مكانك عند رحيمك ورحمانك ، قال : فصرخت صرخة ، أتبعتها زفرة فحركتها فإذا هي ميتة فأسندتها إلى الصخرة وأصعدت في فلاة من الأرض لعلي أرى من يعينني على تجهيزها فلم أر أحداً فعدت إلى الأثر فلم أجد لها خبراً لكن رأيت لها نوراً تشعشع وبروقاً تلمع ، فقلت : يا ليت شعري ما فعل بهذه الأمة ؟ فنوديت : يا شبلي من أخذناه منه في حال حياته غيبناه عن الأعين في مماته . قال الشبلي : فلما كانت تلك الليلة رأيتها في المنام فقلت : ريحانة ما فعل الله بك ؟ فقالت : يا بطال زال العنا ونلنا المنى وتحققنا مالنا وبلغنا قصدنا وآمالنا ، وإن كنت تريد العز الكلي فمت مثلي :

شهدت بعين الفكر في حان حضرتي ومنذ تجلى للقلوب فجنت
سقاني بكأس من مدامة حبه فكان من الساقي خماري وخمرتي
وخاطبني سراً فناديت جهرة ألا يا عباد الله فزت ببغيتي
فغبت عن الأكوان شغلاً بنشوتي وتهت عن العشاق جهراً بسكرتي
شغلت بمن أفضى فؤادي محله ولم يك شغلي بالرباب وعلوة
ولم ترض روحي بالديار وإنما إلى عالم الأسرار زمت مطيتي

فشاهدت معنى لو بدا كشف سره لصم الجبال الراسيات لدكت
وها أنا قد ألهمت قصة شكوتي فوقع فضلاً منه غفران زلتي

[قال بعض السادة] : حججت إلى بيت الله الحرام في بعض الأعوام فلما قضيت الحج وأردت الرجوع رأيت شاباً قد نحل جسمه واصفر لونه وخفي رسمه وقد وقف على الراحلة وتنفس تنفس الحزين . وقال : هل فيكم من يحمل كتاب الغريب الذي طالت غربته واشتدت زفرته وقويت حسرته من أجل عجوز أفنت عمرها في تربيتي وطال اشتياقها إلى رؤيتي فهل فيكن من يحمل كتابي ويوصله إلى أحبابي ويغنم أجري وثوابي ؟ :

هذا كتابي إليكم مخبراً لكم بأنني لم أطق تسطيرها بيدي
لأن إحداهما مشغولة أبداً بمسح دمعي والأخرى على كبدي
فإن تعوضت واستبدلت بعدكم يوماً فلا قالني الرحمن من كمدي

ثم قال : بالله عليكم إذا وصلتم سالمين فأوصلوا إليها كتابي وأخبروها بما بي ثم أنشد يقول :

وقولوا تركنا العامري مولهاً بنار الأسى والشوق قد بلغ الجهدا
فإن سألوكم كيف حالي بعدكم فقولوا لهم والله ما نقض العهدا

قال : فرق قلبي له وأخذت كتابه من يده وقلت له : ما الذي يمنعك عن الوصول إلى والدتك ؟ فقال لي : يا سيدي إذا كانت الأقدار تعوق فما يصنع المخلوق ، ثم أنشد يقول :

خرجت وفي أملي عودة ولكنني لست أدري متى
وإن قد تلذذت في غربتي بأنس حبيبي لما أتى
ولكنني أرتجي في غد بها الاجتماع كما شتتا

قال : فلما فرغ من شعره صرخ صرخة عظيمة وخر مغشياً عليه فاجتمع أهل القافلة إليه ، ثم أفاق بعد ساعة وهو يقول : هيهات هيهات إنّ ما توعدون لآت قرب المزار ودنت الديار وكان اللقاء وآن الرحيل إلى دار البقاء ، ثم صرخ صرخة عظيمة أخرى فارق الدنيا رحمة الله تعالى عليه ، قال : فجهزنا وكفناه وصلينا عليه ودفناه وسرنا طالبين البصرة فلما قربنا منها خرج أهل البلد لتلقي غيابهم والتهنئة بسلامة أصحابهم وإذا في آخر الناس عجوز ضعيفة البصر وقد أضرّ بها الكبر قلبها بذكر الله منتعش وهي تمشي وترتعش وتقول أما آن قدوم الغائب المنتظر أما له في القافلة من خبر ؟ قال : ثم نادت يا معشر القادمين هل لكم فيكم حامل كتاب فيه من ولدي خبر أو جواب ؟ ثم أنشأت تقول :

يعود إلى أوطانه كل غائب ونجلي مع الغياب ليس يعود

لقد ذهبت عيناي من كثرة البكا ونيران قلبي بالفراق تزيد
لقد كنت أرجو أن يعود ونلتقي ولكنني عما أريد بعيد

قال : فتقدمت إليها وقلت لها : أيتها العجوز الحزينة الغريبة الضعيفة الكئيبة معي كتاب من شاب غريب يشكو البعاد ويذكر أن أهله في هذه البلاد ويشتاق إلى أم كانت له كثيرة الوداد ، فعند ذلك صرخت العجوز صرخة عظيمة وقالت : هذه والله صفة ولدي الغريب فناولني الكتاب ليرد ما بقلبي من اللهيب والاكتئاب . قال : فناولتها الكتاب فجعلت تقبله وتتأمله وتضعه على عينيها وقلبها وتقول : يا رسول ولدي الغريب ما فعل بسيدي الحبيب ؟ فقلت لها : قد قضى نحبه ولحق بربه . قال : فلما سمعت أن ولدها أضحى غريباً وحيداً بكت بكاءً شديداً ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت : سيدي ومولاي إنما كنت أحب البقاء في الدنيا رجاء الاجتماع بولدي واللقاء ، والآن لا حاجة لي بعده في البقاء ثم صرخت صرخة ووقعت على الأرض ميتة فعزمت على تجهيزها وإذا بقائل يقول أسمع صوته ولا أرى شخصه : يا هذا هون عليك فليس أمرها إليك وأنشد يقول :

سأبكي عليكم بالدموع تأسفاً وأندب أياماً بوصل تقضت
ولهفي على ربع خلا من أنيسه وصاح به داعي النوى والتشتت
ودار لنا بالرقمتين عهدتها بها كان أحبابي وأهل مودتي
ولي زفرات بالغرام تأججت لها في فؤادي نار شوق أمضت
فإن لم تعودوا إليّ وأنظر حسنكم إذا أقض نحبي من عذابي وحسرتي
فيا معشر الإخوان رقوا لمدنف غريب بلي بالذل في أرض غربة
فيا رب بالهادي البشير محمد نبي رقى حقاً لأرفع رتبة
أجرنا من النيران واغفر ذنوبنا وشفعه فينا فهو خير البرية
عليه سلام الله ما أظلم الدجى وما لاح برق لامع في الدجنة

قال الأستاذ أبو محمد الفراء : إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء : رجل مؤمن قتل مؤمناً ، ورجل يموت على الكفر ، ورجل في قلبه خوف الفقر . وقال الأستاذ الجنيد : يا معشر الفقراء إنكم تكرمون لله وتعرفون بالله فانظروا كيف تكونون مع الله إذا خلوتم به ، وقيل : نعت الفقر ثلاثة أشياء : حفظ سره وأداء فرضه ، وصيانة فقره . وقيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام تريد أن تكون لك في القيامة مثل حسنات الخلق أجمع ؟ قال : نعم يا رب ؟ قال : عد المرضى وكن لثياب الفقراء فالياً فجعل موسى عليه السلام على نفسه في كل شهر سبعة أيام يطوف على الفقراء يفلي ثيابهم ويعود المرضى .

[قال عبد الله بن المبارك] : إظهار الغنى في الفقر أحسن من الفقر . وقيل : أقل ما يلزم الفقير في فقره أربعة أشياء : علم يسوسه وورع يحرزه ويقين يجمله وذكر يؤنسه . قال أبو حفص : لا يصح لأحد الفقر حتى يكون العطاء أحب إليه من الأخذ ، وليس السخاء أن يعطي المعدم الواجد ، وقال ابن الخلال : فلولا شرف التواضع كان حكم الفقير إذا مشى أن يتبختر ، وقال بعضهم : رأيت القيامة قد قامت وكأن قائلاً يقول : ادخل يا بْن دينار ومحمد ابن واسع الجنة . قال : فنظرت إليهما أيهما يتقدّم فتقدم محمد بن واسع فسألت عن سبب تقدّمه فقيل لي : إنه قد كان له قميص واحد ولمالك بن دينار قميصان ، وقال يحيى بن معاذ : لا يوزن غداً الفقر والغنى وإنما يوزن الشكر والصبر فعالوا نصبر ونشكر :

يـــا معشـــر الفقـــراء رب حـــاكم ... لمـــا احتميـــتم عـــن ســـواه حمـــاكم
أبـــديتمو فقـــراً إليـــه وأنتمـــو ... أزكـــى الـــورى ســـبحان مـــن أعطـــاكم
مـــا شـــأنكم في شـــأنكم فقـــر ولا ... ضـــــر إذا مـــــولاكم والاكـــــم
وإذا الملـــوك تـــذللت لجنـــابكم ... جـــاءت غـــداً تختـــال تحـــت لـــواكم
يـــا فـــوز مـــن صـــافاكم في يومـــه ... ليفـــوز في غـــده بصـــدق ولاكـــم

يا أخي ما يتصف بأوصافهم ولم يكن بهم مقتدياً لا يكون فيه أحد معتقداً . وقيل : إنه كان بعض المشايخ معه جماعة من الفقراء المسلمين بالصوفية رأى في المنام كأن السماء قد انشقت ونزل جبريل عليه السلام ومعه ملائكة إلى النبي ﷺ والملائكة بأيديهم الطشوت والأباريق وكأنهم يصبون الماء على أيدي الفقراء وأرجلهم ، فلما بلغوا إليّ مددت يدي ليصبوا عليّ فصبوا عليّ وعلى الفقراء الحاضرين . قال سهل رحمه الله عليه : لو دخل هذه الصفة بالصدق ولو يوماً واحداً حتى أبلغ إلى السرقة أو غيرها لوجب عليّ نصرته ولو قطع يدي :

ملـوك الأرض أربـاب الرعايـا ... ونحـن عبيـد خـلاق البرايـا ... إذا رفعـوا قـدوداً كـالعوالي
ركعنـــا في قـــدود كالحنايـــا ... وإنـا في الثـرى وهمـو سـواء ... إذا نزلـت بنـا رسـل المنايـا

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً .

المجلس الخامس عشر

في مناقب الأولياء رضي الله عنهم أجمعين

الحمد لله الذي جعل الفقراء صفوة خلقه ، ورفع لهم منزلة وقدراً ، وفوا له بالعهود فنشر لهم في الوجود ثناء وذكراً ، زين بهم الزمان وملأ بعرف عرفانهم الأكوان عطراً ، جعل قربه غاية مطلوبهم وصير حبه لكسر قلوبهم جبراً ، نكسوا بالذل نفوسهم فأجرى لهم أجراً ، استعذبوا التعذيب في رضا الحبيب واستحلوا ما كان مراً ، تاهوا على الوجود ، فجادوا بالموجود ، وأضحوا في قيود محبته أسرى ، عرضت عليهم الكنوز فرفضوها ، وحدّقت إليهم الدنيا فتركوها ، واختاروا فاقة وفقراً ، ابتلاهم بالمحن فشكروه على هذه المنن ولزموا صبراً ، تحيل عليهم الشيطان فلم يكن له عليهم من سلطان ولا أطاق لهم كيداً ولا مكراً ، فهم الفقراء إلى الله الأغنياء بالله الذي حجبهم عن الأغيار ، ورفع لهم في الأسحار حجاباً وستراً :

هم الفقراء عنهم فارو ذكراً ... وقف واسمع لهم خبراً وخبرا
بذكرهم القلوب تهيم وجداً ... ومنهم تكتسي الأكوان عطرا
إذا ما الحب ناجاهم تراهم ... يميلوا في الدجى طربا وسكرا
وإن سكروا لهم حال عجيب ... يحير حالهم عقلاً وفكرا
عن الدنيا تجافوا فاستراحوا ... وقد قطعوا بها الأعمار صبرا
على وجناتهم كتبوا إليه ... بأدمعهم حروفاً ليس تقرا
وقد شمخوا على الأكوان تيهاً ... وإعجاباً بحالهم وفخرا
إذا سهروا تراهم في الدياجي ... يديمون الخضوع لديه جهرا
وإن ناموا تولاهم حبيب ... بأسرار القلوب إليه أسرى
حبيب كلما راموا لقاه ... تجلى للقلوب وشال سترا
فدعهم يا عذول ولا تلمهم ... فساقيهم بهم لا شك أدرى
هم الفقراء والحقراء حقاً ... هم الأمراء إذا حققت أمرا

[قال أبو الأشهل السائح رحمة الله عليه] رأيت غلاماً بطريق مكة شرفها الله تعالى قائماً يصلي عند بعض الأميال قد انقطع عن القافلة . قال : فوقفت أنتظره فأطال ، فلما سلم قلت له : سلام عليك قال : وعليك السلام ، فقلت له : إنك قد انقطعت عن الركب ألك رفيق يؤانسك حتى تلحقه ؟ فبكى وقال : نعم . فقلت : وأين هو ؟ قال : أمامي وخلفي عن يميني

وعن شمالي . قال : فعرفت أنه عارف . قلت : أمعك زاد ؟ قال نعم ، فقلت : فأين هو ؟ قال : في قلبي إخلاصي لربي ، قلت هل لك في مرافقتي ؟ قال : الرفيق يشغل عن الله تعالى ولا أحب أحداً يشغلني عنه طرفة عين . فقلت : فمن أين تأكل ؟ قال : الذي غذاني في ظلمة الأحشاء صغيراً قد تكفل برزقي كبيراً فمتى احتجت إلى الطعام والشراب حضر بين يدي ، قلت : فهل من حاجة ؟ قال : نعم ، إذا رأيتني بعد هذا اليوم فلا تكلمني ، فقلت : ادع لي . قال : حجبك الله عن كل معصية وشغلك بما يقربك إليه . قلت : فأين اللقا بعد هذا اليوم ؟ قال : ما بقي بعد هذا اليوم لقاء ، فإن كنت من أهل القرب فاطلبني غداً في منازل المقربين ، ثم غاب عني فلم أره بعدها فأنا متأسف عليه طول عمري :

همو قدحوا الغرام بلا زناد ... فطار الشوق من شغف الفؤاد
إذا لم يطفئوا نيران شوقي ... بوصل صار قلبي كالرماد
عذولي لا تضع في العذل وقتي ... فلست بقاطع حبل الوداد
ويا حادي النياق لأهل نجد ... إذا ما جزت في تلك البوادي
فقل للحب بالجرعاء عني ... مقالة مغرم الأحشاء صادي
أيا راحي وريحاني وروحي ... أتسهرني وتسلبني رقادي
ظلام الليل أحسن من ضياء ... إذا نظر المحب بلا انتقاد
يقوم به المحب إلى حبيب ... عظيم العفو منسكب الأيادي
وسار العارفون إلى رضاه ... يحثهم البكا والشوق حادي
وقد جعلوا الحنين لهم حديثاً ... وتذكار الأحبة خير زاد

[قال مالك بن دينار رحمة الله عليه] : كان لي جار مسرف على نفسه فاجتمع الجيران إليّ يشكونه فأحضرته وقلت له : إنه قد كثر عصيانك ، فإما أن تتوب وإما أن تخرج من هذه المحلة ؟ فقال : أنا في ملكي ما أخرج منه ، قلت : نشكوك إلى السلطان ؟ فقال : أنا من أصحابه ، قلت : فندعو الله عليك ؟ فقال : ربي أرحم بي منكم ثم نهض من عندي ، فلما كان الليل رفعت يديّ في وقت السحر وقلت : سيدي قد آذانا هذا الرجل فاصنع اللهم به وافعل فهتف بي هاتف : لا تدع عليه فإنه من أوليائنا . قال : فقمت من ساعتي وطرقت عليه الباب فخرج وظن أني جئت أخرجه من المحلة فخرج يبكي ويعتذر ويقول : يا سيدي السمع والطاعة أنا أخرج من هذه المحلة . قال : فقلت : ماجئتك لهذا ، وإنما الساعة تضرعت إلى الله تعالى فهتف بي هاتف : لا تدع عليه فإنه من أوليائنا ، فبكى بكاءً شديداً وتاب وحسنت توبته فأصبح الناس يزورونه ويتبركون به وكثروا عليه فخرج إلى مكة شرفها الله تعالى ماشياً

فأقام بها فحججت في العام المقبل . فبينما أنا في وقت الظهيرة في المسجد الحرام أستظلّ بحائط وإذا بجماعة قد اجتمعوا في جانب المسجد فقمت إليهم فإذا هم قد أحدقوا برجل فتأملته فإذا هو صاحبي وهو ملقى على التراب وهو يجود بنفسه فجلست عند رأسه أبكي ففتح عينيه فرآني فقال : يا مالك ترى يعفو عن تلك السيئات ويرحم هذه العبرات إنما خرجت من تلك المحلة وفارقت وطني وأهلي حياء منك وأنت مخلوق مثلي فكيف أقف غداً بين يدي الخالق ! ثم تنفس ومات رحمة الله عليه . [كان وكان] :

ما كان وصل يواصل ... ولا العنا يدني المنا ... هذي سوابق لواحق ... لمن يشا الوهاب
قل لي إذا لم تصبر ... وتحتمل إيش لك عمل ... تقدر بقوة عزمك ... تغالب الغلاب
سلم قيادك تسلم ... واخضع لمالك مهجتك ... إذا عنى بك أتى بك ... من أقرب الأبواب
كم من موفق تائب ... قد بان سبل الهدى ... وكم شقي عاصي ... إلى الساعة ما تاب
ويحك عروس المنايا ... لبيت لحدك خبئت ... وذا مشيبك وافي ... في جملة الخطاب
كأس المنايا دائر ... على البرايا كلهم ... فقل لمن هو حاضر ... يقل لمن قد غاب
غداً تبين الفضائح ... ويشتهر من قد جنى ... وفي القيامة ينادي ... هل من قصدنا خاب

[وحكي عن الجنيد رحمة الله عليه] قال : سافرت سنة من السنين إلى بيت الله الحرام فبينما أنا في الطريق وإذا بصوت موزون من كبد محزون فبادرت إليه وسلمت عليه فقال لي : وعليك السلام يا جنيد ، فقلت له : يا حبيبي ومن أعلمك باسمي ؟ فقال : التقت روحي وروحك في الملكوت فأعلمني باسمك الحيّ الذي لا يموت ثم إنه قال : يا جنيد إذا أنا مت فغسلني وكفني في ثيابي هذه واطلع على هذه الرابية وناد الصلاة على الغريب يرحمكم الله . قال : وإذا بالشاب قد عرق منه الجبين واشتدّ به الأنين . فقال : بالله عليك يا جنيد إذا أنت قضيت حجك ورجعت فارجع إلى بغداد واسأل عن درب الزعفراني واسأل عن أمي وعن ولدي وقل لهم : الغريب يقرئكم السلام لا إلى بيته أوصله ولا معكما تركه وإذا أنا بالشاب قد فارق الدنيا رحمة الله عليه . قال الجنيد : فغسلته وكفنته وطلعت على الرابية وناديت الصلاة على الغريب يرحمكم الله وإذا بجماعة قد أقبلوا من كل فج عميق فصلينا عليه ووارياه تحت التراب فلما قضيت حجي ورجعت إلى بغداد وسألت عن درب الزعفراني فأرشدت إليه وإذا أنا بصبيان يلعبون فنهض إليّ من بينهم صبي وقال لي : يا عماه لعلك أنت الذي أتيت تخبرنا بموت والدي ؟ قال الجنيد : فتعجبت من كلام الصبي وأخذ بيدي وأتى بي إلى الدار فطرقت الباب فخرجت إليّ عجوز وقالت : يا جنيد أين مات ولدي ؟ لعله مات بعرفة قلت لها : لا ، قالت : لعله مات بالبادية تحت شجرة أم غيلان ، قلت لها : نعم ، فقالت : يا ولداه لا إلى بيته أوصله ولا

معنا تركه ثم تأوهت وأنشدت تقول :

أرأيت كيف جنى عليّ زماني وبأي سهم بالبعاد رماني فارقت أحباباً عليّ أعزة
كانوا بقلبي في أعز مكان فرزيت بعد فراقهم برزية فمحت أصول السر من كتماني

فلئن بكيت ولم تفض عيني دماً لفراقهم يوماً فما أقساني
فتنفسوا الصعدا وقالوا يا فتى أقرحت جفن العين بالهملان
ما أنت أول من مضت أحبابه وجرت عليه نوائب الحدثان
الدهر ما يبقى بحال واحد لا بد من فرح ومن أحزان

ثم شهقت شهقة ففارقت الدنيا فنظر الصبي إليها ، وقال : اللهم لا مع أبي أخذتني ولا مع جدتي خلفتني إلـهي ألحقني بهما إنك على كل شيء قدير . قال : فشهق الصبي شهقة فمات رحمة الله عليهم أجمعين :

مدامعي تجري كفيض الغمام وقد جفا جفني لذيذ المنام
من أجل جيران لنا قد نأوا والوجد عندي بعدهم قد أقام
كم قلت للحادي وقد جد في سير المطايا لبدور التمام
بالله قف بي ساعة نشتفي ونشتكي الشوق لأهل الخيام
من كان أهنى عيشنا بالحمى لله طيب العيش لو كان دام

[قال أبو بكر بن المفضل رحمه الله] : سألت بعض أصدقائي ، وكان أصله رومياً عن سبب إسلامه فامتنع أن يحدثني فما زلت به حتى حدثني قال : نزل بنا عسكر المسلمين فحاصرونا سنين فخرجنا إليهم وقاتلناهم فقتلوا منا وقتلنا منهم جماعة وأسرنا منهم جماعة كما جرت عادة العساكر في القتال فأسرت أنا وحدي عشرة من المسلمين وكانت لي في الروم المنزلة العظمى فسلمت العشرة إلى غلماني فقيدوهم وحملوهم على البغال ، فرأيت في بعض الأيام أحد الموكلين بهم قد أخذ من أحدهم شيئاً وتركه يصلي فأخذت الموكل به وضربته وقلت : أخبرني ما الذي أخذته من هذا الأسير ؟ فقال : إنه في وقت كل صلاة يدفع إليّ ديناراً وأطلقه يصلي فقلت : وهل معه شيء ؟ قال : لا ولكنه إذا صلى وفرغ من صلاته ضرب الأرض بيده ودفع إليّ ديناراً فأحببت أن أعرف حقيقة ذلك فلما كان من الغد لبست ثياب الموكل ووكلت نفسي بذلك الرجل وقلت للموكل به رح عنه فإني اليوم أتوكل به حتى أنظر حقيقة ما ذكرت لي ، فلما كان وقت صلاة الظهر أومأ إليّ أنه يريد الصلاة ويدفع إليّ ديناراً فقلت : لا آخذ إلا دينارين فقال : نعم فتركته فصلى فلما فرغ من صلاته رأيته وقد ضرب بيده الأرض ودفع إليّ دينارين جديدين فلما جاء وقت العصر أشار إليّ كالمرة الأولى فأشرت إليه : لا آخذ إلا خمسة

دنانير فقال : نعم فتركته فصلى فلما فرغ من صلاته ضرب بيده الأرض فأعطاني خمسة دنانير جدداً . فلما كان وقت صلاة المغرب أشار إليّ كعادته فقلت : لا آخذ إلا عشرة دنانير ، فقال : نعم ثم صلى ، فلما فرغ من صلاته ضرب بيده الأرض فأعطاني عشرة دنانير جدداً . فلما كان وقت العشاء الآخرة أشار إليّ على عادته فقلت : لا آخذ إلا عشرين ديناراً فقال : نعم وقام فصلى ، فلما فرغ ضرب الأرض بيده ودفع إليّ عشرين ديناراً جدداً . وقال : اطلب ما شئت فإن سيدي غني كريم لا يبخل عليّ بما أسأله فيه فبتّ تلك الليلة وقد داخلني من أمره شيء عظيم وعلمت أنه من أولياء الله تعالى فهبته وداخلني منه هيبة عظيمة ففككت قيده من رجليه . فلما أصبحت دعوته وبجلته وأكرمته وألبسته ثوباً جديداً كان عليّ حسناً وخيرته في الإقامة عندنا في بلادنا في أعز مكان وأكرم محل ويكرم غاية الإكرام والرجوع إلى بلاد الإسلام فاختار الرجوع إلى بلده فأحضرت له بغلاً ودفعت له زاداً وحملته بنفسي على البغل فقال لي : توفاك الله على أحب الأديان إليه . فوالله ما استتم هذه الكلمة حتى وقع دين الإسلام في قلبي ثم أنفذت معه من وجوه أصحابي وغلماني عشرة وأوصيتهم بإيصاله إلى بلده مبجلاً معظماً مكرماً بحيث لا يسوؤه شيء ولا يعترضه عارض وأن يمتثلوا منه جميع ما يأمرهم به ويفعلوا له كل ما يختاره ولا يخالفوه في شيء يريده ودفعت إليه دواة وقرطاساً وجعلت بيني وبينه علامة يكتبها إليّ إذا وصل سالماً إلى مأمنه ، وكانت مسيرة ما بيننا وبين بلاده خمسة أيام . فلما كان اليوم السادس قدم أصحابي عليّ ومعهم القرطاس مكتوباً بخطه والعلامة التي بيني وبينه في القرطاس فسألتهم عن سرعة حضورهم فقالوا : لما خرجنا من عندك وهو معنا وصلنا في ساعة واحدة من غير تعب ولا نصب أصابنا وأقمنا في المجيء خمسة أيام بالجهد والتعب والنصب فقلت عند ذلك : أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله وأن دين الإسلام حق ثم خرجت من بلاد الروم إلى بلاد الإسلام وصار أمري إلى ما صار إليه ، والحمد لله على الهداية والتوفيق :

هكـذا الأوليـاء عـزوا وذلـوا ... وأشـاروا إلى الطريـق فـدلوا ... فهمـو للأنـام مـزن وغيـث
وهمـو للقلـوب بـرد وظـل ... هجروا الخلق في رضاه وساحوا ... ليس للقـوم في الخلائـق خـل
وصلوا الصوم والصلاة فمهما ... مـل ذو الكـد كـده لم يملـوا ... حسـبوا أنهـم كـثير فلمـا
طلبـوا في مهامـه الأرض قلـوا ... فبـهم يـدفع البـلاء عـن الخلـ ... ـق وهم من أهلها حيث حلـوا

إلـهي إن كنت لا ترحم إلا المجتهدين فمن للمقصرين ، وإن كنت لا تقبل إلا المخلصين فمن للمخلطين وإن كنت لا تكرم إلا المحسنين فمن للمسيئين . إلـهي توسلنا إليك بحسن الظنون فاغفر جميع زلاتنا يا من لا تراه العيون ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس السادس عشر

في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩]

الحمد لله العلي المجيد ، الولي الحميد ، المبدىء المعيد ، الفعال لما يريد المتوحد في جلال كبريائه من غير تكييف ولا تحديد ، الذي لا ينفد ملكه ولا يبيد ، خلق الخلائق وسلكهم أحسن الطريق إلى الأمر الرشيد ، فصورهم فأحسن صورهم وبشرهم في الجنة بالتنعيم والتخليد ، بصرهم بعين الاعتبار وحذرهم عذاب النار والوعيد ، وألزمهم شكره ، وضمن لهم من فضله المزيد ، وحكم عليهم بالموت فما لأحد عنه محيص ولا محيد ، فكم أثكل خليلاً بفراق خليله ؛ وكم أيتم ولداً وشغله ببكائه وعويله ، فهو لا يبدي بعد رحيله ولا يعيد ، حكم بالموت على أهل هذا الداء وجعلهم غرضاً لسهام الأقدار ، الأحرار منهم والعبيد ، أوحش المنازل من أقمارها ، ونفر طيور الأرواح من أوكارها ، وعوضهم عن لذة العيش والتنغيص والتنكيد ، فالملك والمملوك والغني والصعلوك كلهم سواء في الفقر والبيد ، فسبحان من أذلّ بالموت من الجبابرة كل جبار عنيد ، وكسر به من الأكاسرة كل بطل صنديد ، أخرجه من سعة القصور ، إلى ضيق القبور ، وقطع حبل أمدهم المديد ، أخذ به الآباء والجدود ، والأطفال من المهود ، وأسكنهم اللحود ، وعفر وجوههم بالتراب والصعيد ، وساوى في الموت بين الصغير والكبير ، والغني والفقير والمأمور والأمير والولد والوليد ، أخمد به ذكر الذكور والإناث فهم في سجن الأجداث إلى يوم الوعيد ، أفلا يعتبر العاقل بمصرعهم ، وقد ساروا بأجمعهم إلى منازل التفريد ؟ أين أهل المدن والحصون أين أرباب المعاني والفنون ، أين المتحصنون بكل حصن منيع ، وقصر مشيد ؟ أما أصبح منهم ذو الشدّة والبأس بعد القرب والإيناس ، في ظلمة اللحد وهو وحيد ، أم وعظكم الموت بمن أخذ منهم من شقي وسعيد ، وقريب وبعيد ، أما أنذرهم قول الملك المجيد : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] .

[كان وكان]

ويحك تنبه لنفسك ... واعمل لما تلقى غدا ... فالموت يأتي بغتة ... وليس له عنه محيد

ما لك إذا ما ملك ... من كان يهوى صحبتك ... وحزت لحدك وحدك ... مفلس غريب وحيد

إن كنت يا صاح نائم ... يوم القيامة تنتبه ... إذا رأيت الخلائق ... في موقف التهديد

وقيل لك اقرأ كتابك كفى بنفسك شاهده وقد أتيت الموقف بسائق وشهيد
فدع دموعك تجري قبل أنه يقال بين الملا ألم تكن قبل تدري أن الحساب شديد
ترى الخلائق حيارى من هول ما قد شاهدوا وليس تدري من هو منهم شقي أو سعيد
فمن أطاع المولى فذاك منه قد قرب ومن عصاه وخالف فذاك منه بعيد
كل القلوب قد لانت لكن قلبك قد قسا كأن قلبك أضحى بين القلوب حديد
ويحك فراقب ربك واسمع كلامي واتعظ عسى قساوة قلبك تلين بالتشديد

فيا غافلاً عن الموت وقد هدم ركن عمره المشيد ، إلى متى أنت في نوم غفلتك لا تبدي ولا تعيد ، أما هيجك الوعد أما أنذرك الوعيد ، أما سمعت قول العزيز الحميد : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ﴾ يريد بذلك وعد الله تعالى على لسان نبيه ﷺ من ظهور ملك الموت وجنوده وانشقاق السقف وأن يكشف له عن مقعده إما في الجنة أو في النار ، وذلك عند مجيء سكرة الموت ، وهو الحق الذي ذكره المصطفى ﷺ من الإيمان بالغيب ، ثم من بعده سؤال القبر بمنكر ونكير ، وهو أوّل ما يلقى الميت إذا ألحد . وأما سكرة الموت فهو اسم مفرد للجنس لأن الموت سكرات . ولما كان رسول الله ﷺ يعالج سكرات الموت ، كان يقول :« إن للموت سكرات » وسكرات الموت بحسب كل شخص بما فعل في دار الدنيا ، وسميت سكرة لأنها تذهل العقول عند ظهورها فيبقى الإنسان كالسكران وذلك أن أعمال العبد تظهر له عند الموت صفاتها في الحسن والقبح يريد جزاء العمل . فالمغتاب تقرض شفاهه بمقاريض من نار ، والسامع للغيبة يسلك في أذنيه نار جهنم ، والظالم تتفرق روحه بكل مظلوم ، وآكل الحرام يقدم له الزقوم ، وكذلك إلى آخر أفعال العبد كل ذلك يظهر عند سكرات الموت ، فالميت يجوزها سكرة بعد سكرة فعند آخرها تقبض روحه وهو قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] يعني تحيد بطول الآمال والحرص على البقاء في دار الدنيا . وعن أبي سعيد الخدري ﷺ : « أن رسول الله ﷺ رأى أناساً يضحكون فقال : أما إنكم لو ذكرتم هاذم اللذات لشغلكم عما أرى ثم قال : أكثروا من ذكر هاذم اللذات وإنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار » . وقال عمر بن الخطاب ﷺ لكعب الأحبار : يا كعب حدّثنا عن الموت ، فقال كعب : يا أمير المؤمنين كأنه غصن شوك أدخل في جوف رجل فأخذت كل شوكة بعرق ثم أخذها رجل شديد الجذب فجذبها جذبة شديدة فقطع منها ما قطع وأبقى ما أبقى . وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال : كان أبي رحمه الله تعالى كثيراً ما يقول : إني لأعجب من الرجل نزل به الموت ومعه عقله ولسانه كيف لا يحدّث به ويصفه ؟ قال : فلما نزل به الموت

قلت له : يا أبت كنت تقول كذا وكذا قال : يا بني الموت أعظم من أن يوصف ولكن سأصف لك منه شيئاً ، والله لكأن على كتفيّ جبال رضوى وتهامة ولكأن روحي تخرج من ثقب إبرة ولكأن في جوفي شوك القتاد ولكأن السماء أطبقت على الأرض وأنا بينهما . وروي عن عيسى عليه السلام أن بني إسرائيل أتوا إلى قبر سام بن نوح عليه السلام فقالوا له : يا روح الله ادع الله تعالى أن يحيي لنا صاحب هذا القبر حتى نسمع منه حديث الموت فجاء عيسى عليه السلام إلى قبره فصلى ركعتين ، ودعا الله تعالى أن يحيي سام بن نوح فأحياه الله تعالى فقام وإذا رأسه ولحيته قد ابيضتا فقال له : ما هذا الشيب فإنه لم يكن في زمانك ؟ قال : سمعت النداء فظننت أن القيامة قد قامت فشاب رأسي ولحيتي من الهيبة فقال له : منذ كم أنت ميت ؟ قال : منذ أربعة آلاف سنة وما ذهبت مرارة الموت عني . وقال وهب بن منبه رضي الله عنه : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يرى الملكين اللذين كانا يحفظان عمله في الدنيا ، فإن صحبهما بخير قالا : جزاك الله عنا خيراً ، فكم من مجلس خير قد أجلستنا وعمل صالح قد أحضرتنا وإن كان رجل سوء ، قالا له : لا جزاك الله عنا خيراً فكم من مجلس شر قد أجلستنا ومن كلام سوء قد أسمعتنا قال : فذلك الذي يشخص بصر الميت ثم لا يرجع إلى الدنيا أبداً . وروي عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : « خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولم يلحد بعد فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وبيده عود ينكت به الأرض فرفع رأسه وقال : استعيذوا بالله من فتنة القبر ومن عذابه مرتين أو ثلاثاً ثم قال : إن العبد المؤمن إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من الدنيا نزلت إليه الملائكة بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة فيجلسون منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه يقول : أيتها النفس المطمئنة الزكية اخرجي إلى مغفرة الله ورضوانه قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السقاء فيأخذونها ولا يدعونها في يده طرفة عين فيجعلونها في ذلك الكفن والحنوط فيخرج منها أطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الطيبة ؟ فيقولون : فلان بن فلان بأحسن أسمائه حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون لها فيفتح لهم فيشيعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة ، فيقول الله تعالى اكتبوا كتابه في عليين وأعيدوه إلى الأرض ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ [طه : ٥٥] فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربي الله ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : ديني الإسلام ، فيقولان له : ما تقول في هذا الرجل الذي

بعث فيكم أهو رسول الله ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ ، فيقولان له : ما علمك به ؟ فيقول : قرأت كتاب الله وآمنت به وصدقته . قال فينادي مناد من السماء : صدق عبدي فافرشوا له من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيأتيه من ريحها وطيبها وروحها ورائحتها ويفسح له في قبره مدّ البصر ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الرائحة فيقول له أبشر بالذي يسرّك هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح ، فيقول : ربّ أقم الساعة شوقاً إلى ما يرى من النعيم » :

نحن في عيشة الوصال الهنيه ... نجتلي الراح في الكؤوس السنيه
قد هجرنا دار الفناء وسرنا ... لديار حياتها أبديه
آنستنا هياكل النور لما ... فارقتنا الهياكل البشريه
وسمعنا الخطاب طيبوا فلا حز ... ن عليكم ولا تخافوا منيه
قد حظيتم برؤيتي وخطابي ... وسكنتم دار الجنان العليه

[قال] : وأما العبد الكافر إذا كان في إقبال من الدنيا وانقطاع من الآخرة نزلت إليه ملائكة سود الوجوه ومعها المسوح فيجلسون منه مدّ البصر ثم يجيء ملك الموت فيجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط الله وغضبه فتتفرق في الأعضاء كلها فينزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول فتتقطع الأعضاء كلها فيأخذها فلا يدعونها في يده طرفة عين فيأخذونها فيجعلونها في تلك المسوح وتخرج منها رائحة منتنة كأنتن رائحة وجدت على الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟ فيقولون : هو فلان بن فلان بأقبح أسمائه حتى ينتهوا بها إلى سماء الدنيا فيستفتحون فلا يفتح لهم ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف : ٤٠] ويقول الله تعالى : اكتبوا كتابه في سجين ثم تطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] فتعاد روحه من جسده ، ثم يأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ، فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ! فيقولان له : ما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه لا أدري ! فينادي مناد من السماء : كذب عبدي فافرشوا له من النار وألبسوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيدخل عليه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف عليه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول له : أبشر بالذي يسوؤك هذا يومك الذي كنت توعد . فيقول له : من أنت ؟ فيقول :

أنا عملك الخبيث السيىء في دار الدنيا فيقول : رب لا تقم الساعة » .

واطـول حـزن الأنفـس الشـقيه إذا أتاهـا طـارق المنيـه
ويـا حياهـا سـاعة العـرض علـى عليـم أسـرار الـورى الخفيـه
مـا حالهـا إن دخلـت دار البقـا وخلـدت في نارهـا مجزيـه
وألبسـت مـن السـعير حلـة لم تبـق مـن أوصـافها بقيـه
أعمالهـا خبيثـة مـن أجـل ذا خصـت بـدار الحـزن والرزيـه

وقال رسول الله ﷺ : « سكرات الموت أشدّ من ألف ضربة بالسيف وإن بعده سبعين هولاً كل هول أشدّ من الموت بسبعين ضعفاً » . وقال الحسن البصري رحمة الله عليه : فكرت ليلة في الموت والقبر فرأيت تلك الليلة كأني في القبر والأموات في لحودهم ولهم فرش ورائحة طيبة فقلت : من هؤلاء ؟ فقيل لي : هم المطيعون وهم في كرامة الله إلى يوم يبعثون . قلت : فأين المعذبون ؟ قيل لي غارت بهم الأرض في ظلمات الوحشة ومهاوي القطيعة لا يرون ولا يرون ، شتان بين الطائفتين من كانت الدنيا سجنه كان القبر فرجه ، ومن كانت الدنيا فرجه كان القبر سجنه ومحنته ، ما نالوا حلاوة الوصل وراحة الوجد إلا بعد مرارة التعب ، ما طربوا على سماع الإيقاع إلا بسدّ السمع ، ولا شاهدوا وجه الجمال إلا بغضّ البصر ، ولا سكروا من المحبة إلا بعد شراب الشوق :

عـج بالمعـالم والربـوع واسـأل بهـنّ عـن الجمـوع
مـن سـادة في دهـرهم صـبروا علـى الضـيم الفظيـع
أيـن الـذين عهـدتهم يـا دار في العـزّ المنيـع
إن لم تجبـك ديـارهم عـن ذا ولا القصـر الرفيـع
فلسـان حـالهم يقـو ل أمـا نظـرت إلى الربـوع
قـد أصـبحت مهجـورة مـن بعـد منظرهـا البـديع
هيهـات أن ينجـو غـداً يـوم الحسـاب سـوى المطيـع

[إخواني] ما هذه الغفلة وإلى البلى المصير ! وما هذا التواني والعمر قصير ! وإلى متى هذا التمادي في البطالة والتقصير ؟ وما هذا الكسل وقد أنذرك النذير ؟ خلفك والله عن باب الحبيب سوء التدبير فإلى متى تتبهرج والناقد بصير ! يا هذا جولانك في البطالة حيرك ، وركونك إلى اغترارك غيرك ، وهروبك عمن صوّرك إلى النار صيرك ! أنسيت مصرعك في القبر لا بدّ لك ، وقد سوّد العصيان قلبك وبدّلك ! أما تذكر ساعة يعرق لهولها الجبين ،

وتخرس من فجأتها الألسن ، وتقطرت قطرات الأسف من الأعين ، فتذكروا رحمكم الله فالأمر شديد ، وبادروا بقية أعماركم فالندم بعد الموت لا يفيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق : ١٩] .

[إخواني] أين أحبابكم الذين سلفوا ، أين أترابكم الذين رحلوا وانصرفوا ، أين أرباب الأموال وما خلفوا ، ندموا على التفريط يا ليتهم عرفوا هول مقام يشيب منه الوليد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ واعجباً كلما دعيت إلى الله توانيت ، وكلما حركتك الواعظ إلى الخيرات أبيت وتماديت ، وكم حذرك المنون فما انتهيت ، يا من جسده حيّ وقلبه ميت ستعاين عند الحسرات ما لا تريد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا أخي كم أزعج المنون نفوساً من ديارهم ، وكم أباد البلى من أجساد منعمة لم يدارها ، وكم نقل إلى الحفائر أرواحاً بأوزارها ، وكم أذلّ في التراب خدوداً بعد مزارها . فابك يا أخي على نفسك قبل بكاء لا يفيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ انتبه يا هذا فالدنيا أضغاث أحلام ، ودار الفناء لا تصلح للمقام ، ستفهم قولي بعد قليل الأيام ، وما غاب عنك بعضه ستراه على التمام ، إذا جاء الكشف وذهب التقليد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ ويحك أما علمت أنك ترحل في كل مرحلة ، أما علمت أنه يحصى عليك من الأعمال خردلة وكم من مؤمل خانه في الحساب ما أمله غافصه مر القضاء وعاجله ولم تبلغه الأمال إلى ما يريد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا معرضاً عن المولى إلى متى هذا الإعراض ، وقد ولى شبابك في طلب الأعراض ، أما علمت ويحك أن عمرك في انقراض وقواك كل ساعة في انتقاض ، ويحك تزوّد فالسفر والله بعيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ يا من يجلس في المجالس وقلبه في الأسباب ، يا من تنقضي المواعظ وهو ما تاب ، يا من كسته المعاصي ظلمة الحجاب ، يا من أغلق الهوى في وجهه الأبواب ، نح على نفسك فربما ينفع التعديد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أما علمت أن الموت لك بالمرصاد ، أما صاد غيرك ولك سيصطاد ، أما بلغك ما فعل بسائر القصاد ، أما حذرك غفلتك عنه في كل موطن وواد ، أما سمعت قول الملك المجيد : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ عباد الله تدبروا القرآن المجيد ، وأحضروا قلوبكم لفهم الوعد والوعيد ، ولازموا طاعة الله فهذا شأن العبيد ، واحذروا غضبه فكم قصد من جبار عنيد ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٢] أين من بنى وشاد وطول وتأمر على العباد وسار في الأوّل ، وظن جهلاً منه أنه لا يتحول ،

فسقوا إذ فسقوا كأساً على هلاكهم عول أتراهم لم يسمعوا الإنذار بالموت والتهديد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ فيا من أنذره يومه وأمسه وحادثه بالعبر قمره وشمسه ، وهو مصرّ على الخطايا وقد دنا رمسه ، وهو غافل عما جاء بالزجر والوعيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ أما علمت أيها الإنسان ، أنك مسؤول عن الزمان ، ومحاسب على خطوات الأقدام وهفوات اللسان ، وتشهد عليك الجوارح والأركان ، بما فعلت في زمن الإمكان ، أما علمت أن الموت لك بالمرصاد ، وهو أقرب إليك من حبل الوريد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ فيا من ينظر العبر بعينيه ويسمع المواعظ بأذنيه ، وكلمته معدودة عليه ونذير الموت قد دنا إليه بالإسراع والتأكيد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ كأنك بالموت وقد اختطفك اختطاف البرق ولم تقدر على دفعه عنك بملك الغرب والشرق وتأسفت على ترك الأوّل والآخر الأسف الشديد ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ . . .

[كان وكان]

ويحك تهدم عمرك ... وربع قلبك قد خرب ... أما ترى الشيب أبيض ... والقلب في التسويد
من عن يمينك كاتب ... لكل خير تفعله ... كذاك للشر حاسب ... على الشمال قعيد
تروغ مثل الثعلب ... إذا أشرت بتوبتك ... وإن بدت لك شهوه ... وثبت كالصنديد
ويحك فقرب قلبك ... إلى سبيل الموعظه ... عسى قساوة قلبك ... تلين بالتشديد
فكل قلب قاسي ... يلين عند الموعظه ... يرجى له الخير فافهم ... إشارة التجريد
إن كان مالك عده ... ولا سلاح يحملك ... فاحرص عسى تسلم ... لك علامة التوحيد

إلـهي إن كانت ذنوبنا قد أخافتنا من عقابك ، فإن حسن الظن قد أطمعنا في ثوابك ، فإن عفوت فمن أولى منك بذلك ، وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك . إلـهي إن كنت لا ترحم إلا المجتهدين فمن للمقصرين ، وإن كنت لا تقبل إلا المخلصين فمن للمخلطين ، وإن كنت لا تكرم إلا المحسنين فمن للمسيئين ، إلـهي ما أعظم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشدّ مصيبتي أنبه غيري وأنا النائم ، سيدي ما أبلغ قصتي أدل غيري وأنا الحائر ، إلـهي جد بالعفو على مذكر متكلف وسامع متخلف ، إلـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أتراك تقبل المدلول وترد الدليل ، إلـهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك وارحمنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المجلس السابع عشر

في إثبات كرامات الأولياء رضي الله عنهم

الحمد لله الذي نصب لأهل محبته باب خدمته خياماً وأعلاماً ، فإذا نامت الخلق جذبهم إليه فباتوا بين يديه سجداً وقياماً ، فما أحسنهم أول الليل خداماً ، وما ألطف شمائلهم آخر الليل ندامى ، فلو رأيتهم وقد فتح لهم الباب وكشف لهم الحجاب وأنعم عليه بمشاهدته إنعاماً :

حادي الركب إن وصلت الخياما ... أقر عني تلك الوجوه السلاما
قبل الأرض ثم قل أنا والله ... على العهد ما نقضت الذماما
كيف أختار مذ رحلتم بديلاً ... وهواكم بمهجتي قد أقاما

[اعلم] أن من أجلّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والحفظ من المعاصي والمخالفات ، ومما يشهد من القرآن على إظهار الكرامات للأولياء قوله تعالى في قصة مريم عليها السلام ولم تكن نبياً ولا رسولاً : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] وقال تعالى لمريم عليها السلام : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم : ٢٥] وكان ذلك في غير أوان الرطب ، ومن ذلك ما ظهر للخضر عليه السلام من إقامة الجدار وغيره من الأعاجيب وما كان يعرفه مما خفي سره على موسى عليه السلام كل ذلك أمور خارقة للعادة اختص الخضر بها ولم يكن نبياً ، وإنما كان ولياً . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « بينما رجل يسوق بقرة قد حمل عليها التفتت إليه وقالت : إني لم أخلق لهذا إنما خلقت للحرث » . وقال الحسن البصري رحمة الله عليه : كان بعبادان رجل فقير أسود يأوي إلى الخربات فحصل معي شيء فطلبته ، فلما وقعت عينه عليّ تبسم وأشار بيده إلى الأرض فصارت الأرض كلها ذهباً تلمع ، ثم قال : هات ما معك فناولته وهالني أمره فهربت . وعن أبي يزيد ، قال دخل عليّ أبو علي السندي وكان أستاذه وبيده جراب فصبها فإذا هي جواهر فقلت له : من أين لك هذا ؟ قال وافيت وادياً ههنا فإذا هو يضيء كالسراج فحملت هذا منه فقلت : كيف كان وقتك الذي وردت فيه الوادي ؟ قال : وقت فترتي عن الحالة التي كنت فيها . وقال سهل بن عبد الله رحمه الله : أكبر الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك بخلق حسن . وقال ذو النون المصري : رأيت شاباً عند الكعبة يكثر الركوع والسجود فدنوت منه وقلت له : إنك لتكثر الصلاة .

فقال : أنتظر الإذن من ربي في الانصراف . قال : فرأيت رقعة سقطت مكتوب فيها من العزيز الغفور إلى عبدي الصادق انصرف مغفوراً لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخر . وقال جابر الرحبي رحمه الله : كان أكثر أهل الرحبة على الإنكار في باب الكرامات فركبت السبع يوماً ودخلت الرحبة . وقلت : أين الذين يكذبون أولياء الله تعالى ؟ قال : فكفوا بعد ذلك عني . وقال بكر ابن عبد الرحمن رحمه الله : كنا مع ذي النون المصري في البادية فنزلنا تحت شجرة أم غيلان فقلنا : ما أطيب هذا الموضع لو كان فيه رطب ! فتبسم ذو النون ، وقال : تشتهون رطباً وحرك الشجرة ، وقال : أقسمت عليك بالذي أنبتك وخلقك شجرة إلا ما نثرت علينا رطباً جنياً ثم حركها فنثرت رطباً فأكلنا وشبعنا ثم نمنا وانتبهنا وحركنا الشجرة فنثرت علينا شوكاً :

أيا من كلما نودي أجابا ... ومن بجلاله ينشى السحابا ... وكلم في الدجى موسى بلطف
كلاماً ثم ألهمه الخطابا ... ويا من رد يوسف بَعْدَ بُعْدٍ ... وكان أبوه ينتحب انتحابا
ويا من خص أحمد واصطفاه ... وأعطاه الرسائل والكتابا ... وقربه وسماه حبيّا
وأعتق في شفاعته الرقابا ... لك الفضل المبين على عطاء ... منحت به وضاعفت الثوابا

وقيل : كان جماعة مع أيوب السختياني في سفر فأعياهم طلب الماء . فقال أيوب : أتسترون عليّ ما عشت ؟ فقالوا : نعم فدوّر دائرة فنبع الماء ، قال : فشربنا فلما قدموا البصرة أخبر به حماد بن زيد ، فقال عبد الواحد بن زيد : شهدت معه ذلك اليوم . وقيل : حج سفيان الثوري مع شيبان الراعي فعرض لهما سبع . فقال سفيان لشيبان : أما ترى هذا السبع ؟ فقال : لا تخف فأخذ شيبان أذنه فعركها فبصبص وحرك ذنبه ؟ فقال سفيان : ما هذه الشهرة ؟ فقال : لولا مخافة الشهرة لوضعت زادي على ظهره حتى آتي مكة . وقال جعفر بن تركان رحمه الله : كنت أجالس الفقراء ففتح عليّ بدينار فأردت أن أدفعه إليهم ، ثم قلت في نفسي : لعلي أحتاج إليه فهاج بي وجع الضرس فقلعت سناً فوجعت الأخرى فقلعتها فهتف بي هاتف : إن لم تدفع إليهم الدينار لم يبق في فمك سنّ واحدة . وقال أحمد بن منصور رحمه الله : قال لي أستاذي أبو يعقوب السوسي : غسلت مريداً فأمسك إبهامي وهو على المغتسل فقلت : يا بني خل يدي أنا أدري أنك لست بميت وإنما هي نقلة من دار إلى دار ، فخلى يدي . وقال الشبلي رحمه الله : عقدت عقداً مع الله تعالى أن لا آكل إلا من الحلال فكنت أدور في البراري فرأيت شجرة تين فمددت يدي إليها لآكل منها فنادتني الشجرة : احفظ عليك عقدك لا تأكل مني فإني ليهودي .

[وقال عبد الله بن حنيف رحمه الله] : دخلت بغداد قاصداً الحج ولم آكل الخبز أربعين يوماً ولم أدخل على الجنيد وكنت على طهارة فرأيت ظبياً على رأس البئر وهو يشرب وكنت

عطشاناً ، فلما دنوت إلى البئر ولى الظبي ، فإذا الماء في أسفل البئر فمشيت ، وقلت : يا سيدي ما لي محل هذا الظبي فنوديت من خلفي : جربناك فلم تصبر فارجع وخذ ، فرجعت فإذا البئر ملآنة فملأت ركوتي فكنت أشرب منه وأتطهر إلى المدينة ولم ينفذ ولما استقيت سمعت هاتفاً يقول : إن الظبي جاء بلا ركوة ولا حبل وأنت جئت ومعك الركوة ، فلما رجعت من الحج دخلت الجامع فلما وقع بصر الجنيد عليّ قال : لو صبرت ساعة لنبع الماء من تحت رجليك :

غرست الحب غرساً في فؤادي ... فلا أسلو إلى يوم التنادي
جرحت القلب بالهجران مني ... فشوقي زائد والحب بادي
سقاني شربة أحيا فؤادي ... بكأس الحب من بحر الوداد
فلولا الله يحفظ عارفيه ... لهام العارفون بكل وادي

[وقال محمد بن سعيد البصري رحمه الله] : بينا أنا أمشي في طريق البصرة إذ رأيت أعرابياً يسوق جملاً له فالتفت فإذا الجمل وقع ميتاً ووقع الرجل والقتب فمشيت ثم التفت ، فإذا الأعرابي يقول : يا مسبب كل سبب ويا مأمول كل ذي طلب رد عليّ ما ذهب يحمل الرحل والقتب فإذا الجمل قائم والرحل والقتب فوقه .

[وقال أبو بكر الهمداني رحمه الله] : بقيت في برّية الحجاز أياماً ولم آكل شيئاً فاشتهيت باقلاً حاراً وخبزاً من باب الطاق فقلت : أنا في البرية وبيني وبين العراق مسافة بعيدة فلم أتم كلامي إلا وإذا أنا بأعرابي من بعيد ينادي : يا باقلا حار وخبز فتقدمت إليه وقلت له : عندك باقلا حار وخبز ؟ قال : نعم وبسط مئزراً كان عليه وأخرج خبزاً وباقلا ، وقال لي : كل فأكلت ثم قال لي : كل فأكلت ثم قال لي : كل فأكلت ، فلما قال لي الرابع ، قلت : بحق الذي بعثك لي إلا ما قلت لي من أنت ؟ قال : أنا الخضر ثم غاب عني فلم أره :

كفاني سبق علمك بي كفاني ... وحسبك من سؤالك أن تراني
ولي في كل وقت منك برّ ... يبشر بالأمان وبالأماني
وما حاولت رزقاً منك يوماً ... على بعد المدى إلا أتاني

[وقال إبراهيم الخوّاص رحمة الله عليه] : دخلت خربة في بعض الأسفار في طريق مكة شرفها الله تعالى بالليل فإذا فيها سبع عظيم فخفت منه فهتف بي هاتف أثبت فإن حولك سبعين ألف ملك يحفظونك . وقال أيوب الحمال رحمه الله : كان أبو عبد الله الديلمي رحمه الله إذا نزل منزلاً في سفر عمد إلى حماره ، وقال في أذنه : كنت أريد أن أربطك فالآن لا أربطك وأرسلك في هذه الصحراء لتأكل الكلأ فإذا أردنا الرحيل فتعال ، قال : فإذا كان وقت الرحيل

يأتيه الحمار . وقال آدم بن أبي إياس رحمة الله عليه : كنت بعسقلان وكان يغشانا شاب ويجالسنا ويتحدث معنا ، فإذا فرغنا قام إلى الصلاة يصلي فودّعنا يوماً ، وقال : أريد الإسكندرية فخرجت معه فناولته دراهم فأبى أن يأخذها فألحت عليه فألقى كفاً من الرمل في ركوته واستقى من ماء البحر فقال لي : كله فنظرت فإذا هو سويق وسكر كثير ، فقال : من كان حاله مثل هذا يحتاج إلى دراهمك ؟ ثم أنشأ يقول :

ليس في القلب والفؤاد جميعاً ... موضع فارغ لغير الحبيب
هو سؤلي ومنيتي ومرادي ... وبه ما حييت عيشي يطيب
فإذا ما السقام حل بقلبي ... لم يكن غيره لسقمي طبيب

[**فصل**] إذا هبّ على القوم نسيم عناية الحق فأحيا القلوب التي أماتتها الجهالة والغفلة سقاها بكأس التوفيق رحيق التحقيق فسرت في أرواحهم آثار المسرّة والأفراح ، ولاح عليهم أثر الجد والارتياح ، نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار فرأوها ليست لهم بدار ، فاغتنموا البدار إلى الآخرة بالجدّ والاقتدار ، قطعوا النهار بالصيام والليل بالقيام والأذكار ، فإذا التذّ الغافلون بالنوم تلذذوا بمناجاة الكريم في الأسحار ، قد بذل لهم الحبيب رضاه فآثروا حبه على ما سواه ، فسقاهم بكأس المصافاة . وتجلى عليهم في خلوة السحر فتلذذوا بمشاهدته ورؤياه ، وناداهم عبادي وأحبابي هلموا إلى بابي فقد رفعت لكم حجابي وأبحتكم جناني وأعطيت كلاً منكم قصده ومناه :

قوم على مولاهم أقبلوا ... وأعرضوا عن كل شيء سواه
وحرّموا نوم الدجى رغبة ... فيما لديه كي ينالوا رضاه
دموعهم فوق خدود لهم ... تجري اشتياقاً منهمو في لقاه
قد طلقوا الدنيا بلا رجعة ... وآثروا فوق هواهم هواه
يا من أضاع العمر في غفلة ... ولم ينل من فعل خير مناه
بادر إلى التوبة من قبل أن ... تعدم والله سبيل النجاه
وازرع ليوم البعث زرع التقى ... لعل أن ينمو وتجني جناه
وإن تخف من قبح ذنب مضى ... فلذ بمن تأوي إليه العصاة
محمد المختار خير الورى ... من طبق الأرض جميعاً شذاه
صلى عليه الله ما أشرقت ... شمس وما حنت إليه الحداة

المجلس الثامن عشر

في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾

[آل عمران : ١٠٦]

الحمد لله الذي تعرّف إلى أوليائه بنعوت الجمال فعرفوه ، دلهم به عليه فوافقهم بالأنس فألفوه ، ألهم أسرارهم أسماءه فبذكره لهم ذكروه ، يباهي بأحوالهم الملائكة وكيف لا وقد أحبهم وأحبوه ؟ حمى إقليم قلوبهم من طوارق الغفلة فلا يتركوه ، أحرزوا حاصل العمر في صندوق الإخلاص وختموه ، تفقدوا دفتر أعمالهم من غلط الخطايا وصححوه ، خافوا الفضيحة يوم الحساب فحفظوا الأمانة فيما أُؤتمن ، نالوا المقصود من محبوبهم وفوق ما طلبوه ، والمحروم في تيه الحرمان حرموه وما رحموه ، واخجلته في المحشر وسرابيل الذلّ ألبسوه ، يوم تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه ، والحمد لله الذي اخترع الموجودات بلا شريك ولا معين ، تعالى في علوّ شأنه عن صفات التمكين والتكوين ، استوى على العرش وينزل إلى السماء لاستغفار المستغفرين والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات باليمين ﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ﴾ [السجدة : ٧] أبدعه من نطفة حقيرة وسفره في إقليم الأطوار ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس : ٧٧] سلط عليه الشهوة ليعلم أنه ذليل مهين ، فأهل المعاصي جفت من عيونهم دموع العبرات فلا معين ولا معين ، والأحباب بالباب يناديهم حبيبهم نداء المحبين : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] والحمد لله الذي لا تغيره الحوادث ولا يبليه تعاقب الأزمان والدهور . الأول من عدد ، الآخر لا بالمدد ، الظاهر لا بالرصد ، الباطن فلا يحد ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا عنصر ، تقدس من حجابه النور ، المعطل أكمه والجاحد أعمى والمجسم أعشى والمشبه في سجن الجهل مأسور ، أنزل من المعصرات ماء أحيا به النبات منظومه والمنثور ، نقله إلى الأغذية فتولد منه المنيّ لإيجاد الإناث من الحيوان والذكور ، ليظهر فيهم فضله وعدله فهذا مجبور وهذا مكسور ، نقش في ألواح أرواحهم يوم الإيجاد حروف الحبور والثبور ، فكل منهم يجري لما لا يدري ، غيب عنهم عواقب الأمور ، ثم رماها بسهم المنية الصائب فأصاب منهم

النحور ، ثم عزاهم بقوله ليعلموا عدله في قضائه وأنه لا يجور ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] فسبحان من يقضي ولا يقضى عليه يكسر الصحيح ويجبر المكسور ، أحمده حمد من يرجو رحمته لعلمه أنه الرحيم الغفور ، وأشهد أن لا إلّـه إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة أعدّها ليوم النشور ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله شفيع الأمم يوم يبعث من في القبور ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ما دامت الأزمان والعصور .

[إخواني] : لقد خسر من طلب الفاني وهو عنه راحل ، أما يشاهد حادي الجديدين وهو يطوي من العمر المراحل ، أما الليل والنهار مرصدان لحمل الأعمار بالرواحل ، أما ترى من قال تحت ظلها كيف زال بظلها الزائل ؟ أما ترى من عمر ألف عام إذا سئل قال : لبثت أياماً قلائل ؟ أما ترى من شيد الحصون وعقل العقائل ؟ أبادهم بسف الحمام فكل عن ملكه زائل ؟ أين نوح وعاد وثمود وتبع والملوك الأوائل ؟ أين من ملكها شرقاً وغرباً رحل وما حَظِيَ منها بطائل ؟ نقل إلى بيت مظلم فاستوى فيه ذو السطان والخامل ، اندرست معالمهم وعادت دروساً تدرس ليعتبر الظالم والجاهل أما تسمع نداءهم وهم صموت ؟ أما تتعظ بهم يا عاقل ؟ أين شداد والنعمان ؟ أين كسرى والإيوان ؟ أين ملوك بابل ؟ أبادهم الحدثان ليوم يقومون فيه على ما قدموه ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] .

[كان وكان]

لا تـــأمنن الـــدنيا ... وقـد أرتـك خـداعها ... كـم مـن رفيـع شـامخ ... إلى البلـــى جلبـــوه
فازرع إذا شئت تحصـد ... وجـد في طلـب العـلا ... وثـــق بوعـــد المـــولى ... في كـــل مـــا ترجـــوه
واعلـم بـأن النـاجي ... يوم القيامـة مـن لظـى ... يـــوم أطـــاعوا المـــولى ... جهـــراً ولم يعصـــوه
قد خص أهل السعاده ... بنـــور علـــم المعرفـــه ... وزاد أهـــل الشـــقاوة ... جهـــلاً فمـــا عرفـــوه
فاعمـــل ليـــوم تســـودّ ... فيه الوجوه مـن الشـقا ... كـــذا لأهـــل الســـعادة ... تبـــيضّ فيـــه وجـــوه

[قال عبد الواحد بن زيد رحمه الله] : سألت الله تبارك وتعالى ثلاث ليال أن يُرِيَني رفيقي في الجنة فرأيت كأن قائلاً يقول لي : يا عبد الواحد رفيقك في الجنة ميمونة السوداء ، فقلت : وأين هي ؟ قال : في آل بني فلان بالكوفة . قال : فخرجت إلى الكوفة وسألت عنها فقيل : هي مجنونة بين ظهرانينا ترعى غنيمات لنا . فقلت : أريد أن أراها فقالوا : اخرج إلى الجبال فخرجت فإذا هي قائمة تصلي وبين يديها عكاز لها وعليها جبة من صوف مكتوب عليها لا تباع ولا تشترى وإذا الغنم مع الذئاب فلا الذئاب تأكل الغنم ولا الغنم تخاف من الذئاب . فلما رأتني أوجزت في صلاتها ثم قالت : ارجع يا بْنَ زيد ليس الموعد ههنا ، إنما الموعد في

الجنة ، فقلت : يرحمك الله ومن أعلمك أني ابن زيد ؟ فقلت : أما علمت أن الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف ! فقلت لها : عظيني فقالت : واعجباً بواعظ يوعظ ! ثم قالت : يا بْنَ زيد إنك لو وضعت معايير القسط على جوارحك لخبرتك بمكتوم مكنون ما فيها ، يا بَنْ زيد إنه بلغني أنه ما من عبد أعطي من الدنيا شيئاً فابتغى إليه ثانياً إلا سلبه الله عز وجلّ حبّ الخلوة معه ، وبدّله بعد القرب البعد ، وبعد الأنس الوحشة ، ثم أنشأت تقول :

يا واعظاً جاء بالعيوب ... يزجر قوماً عن الذنوب ... تنهى وأنت السقيم حقّا
هذا من المنكر العجيب ... لو كنت أصلحت قبل هذا ... عيبك أو تبت من قريب

كان لما قلت يا حبيبي ... موضع صدق من القلوب
تنهى عن الغيّ والتمادي ... وأنت في النهي كالمريب

فقلت لها : إني أرى هذه الذئاب مع الغنم فلا الغنم تفزع من الذئاب ولا الذئاب تأكل الغنم فأيّ شيء هذا ؟ فقالت : إليك عني فإني أصلحت ما بيني وبين سيدي ، فأصلح ما بين الذئاب والغنم ، ثم أنشأت تقول :

لو كنت لي يوم اللقا معينا ... لم يردوا ماء اللوى معينا
لولا الهوى لم أدر ما طعم الردى ... ولا أذعت سرّي المصونا
تصدّ ليلى كل يوم جفوة ... تبدلنا من الأسى فنونا
بانوا ففي الأحشاء منهم لوعة ... يمنعها الغرام أن تبينا
لهفي على بعد الحمى وقد أرى ... تلهفي من بعدهم جنونا
حرمتمو طرفي على النوم فما ... أظن نومي يعرف الجفونا
حاشى لسمعي أن يرى مستمعاً ... عذلاً وحاشى أن يرى مفتونا

[إخواني] هذه علامات الصادقين ، إخواني هذه مدائح المؤمنين ، إخواني هذه آثار المتقين ، إخواني هذه روضات السابقين ، يا من تحير في طريق المعاصي الطريق قريب ، يا من أوبقته الزلات بادر بالتوبة تصيب ، يا من توالى في المعاصي ارجع فالذي دعاك يجيب ، إخواني كأنكم بقاطع الآمال قد هجم ، ونقلكم إلى بيت الديدان والظلم وفرق من شمل الأحباب ما انتظم ، وقد ندم المفرط حيث لا ينفعه الندم على ذهاب الأعمار في الأيام الخالية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] ويحك أما تحذر من بوعيده حذرك ، أما تستحي ممن أوجدك وصوّرك كأني بك والله وقد نسيك الحبيب وأفردك ، وإلى ضيق قبرك أوردك ، وعادت قلوب حزنة عليك سالية ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : ١٨] .

واحسرتي واشوقي من يوم نشر كتابيه واطول حزني إن أكن أوتيته بشماليه
وإذا سئلت عن الخطا ماذا يكون جوابيه واحرّ قلبي أن يكون مع القلوب القاسيه
كلا ولا قدمت لي عملاً ليوم حسابيه بل أنني لشقاوتي وقساوتي وعذابيه
بارزت بالزلات في أيام دهر خاليه من ليس يخفى عنه من قبح المعاصي خافيه
أستغفر الله العظيـ ـم وتبت من أفعاليه فعسى الإله يجود لي بالعفو ثم العافيه

وحكي أن عمر بن عبد العزيز ﷺ شيع جنازة ، فلما اصطف الناس تأخر عنها ، فقال له أصحابه : يا أمير المؤمنين جنازة أنت وليها تأخرت عنها وتركتها ؟ فقال : إني ما تأخرت عنها إلا لأن القبر ناداني من خلفي يا عمر بن عبد العزيز ألا تسألني ما صنعت بالأحبة ؟ فقلت له : وما صنعت بهم ؟ فقال : خرقت الأكفان ومزقت الأبدان ومصصت الدم وأكلت اللحم ، ألا تسألني ما صنعت بالأوصال ؟ فقلت له : ما صنعت بها ؟ فقال : فرقت الكتفين من الذراعين والركبتين من الساقين والساقين من القدمين ثم بكى عمر ، وقال : إن الدنيا بقاؤها قليل وعزيزها ذليل وغنيها فقير ، وشبابها يهرم وحيها يموت ، فلا يغرنكم إقبالها مع معرفتكم بسرعة إدبارها ، أين قراء القرآن ؟ أين حجاج بيت الله الحرام : أين صوّام شهر رمضان ؟ ما صنع التراب بأبدانهم والديدان بأجسادهم والبلى بعظامهم وأوصالهم ؟ كانوا والله في الدنيا على أسرة ممهدة ، وفرش منضدة ، بين خدم يخدمون ، وأهل يكرمون . أليس هم بعدها في مدلهمة ظلماء قد حيل بينهم وبين العمل فارقوا الأهل والوطن ، قد فارقوا الحدائق وصاروا بعد السعة في المضايق ، وتزوّجت نساؤهم وتردّدت في الطرقات أبناؤهم وتوزعت القرابات ديارهم وتراثهم . فمنهم والله الموسع له في قبره ، ومنهم والله المضيق عليه في لحده . هيهات هيهات يا مغمض الوالد والأخ والولد وغاسله ، ويا مكفن الميت وحامله ، يا محله في القبر وراجعاً عنه ليت شعري بأيّ خديه يبدأ البلى ، ثم بكى حتى غشي عليه وما بقي إلا جمعة ومات رحمة الله عليه :

ضعوا خدّي على لحدي ضعوه ومن عفر التراب فسوّدوه
وشقوا عنه أكفاناً رقاقاً وفي الرمس البعيد فغيبوه
فلو أبصرتموه إذا تقضت صبيحة ثالث أنكرتموه
وقد مالت نواظر مقلتيه على وجناته ورفضتموه
وقد نادى البلا هذا فلان هلموا فانظروا هل تعرفوه
حبيبكمو وجاركم المفدى تقادم عهده فنسيتموه

[أخي] دنا والله من زرعك الحصاد ، فإلى متى التمادي والرقاد ، وبين يديك أهوال يوم المعاد ، يوم يفرّ الوالد فيه من الأولاد ؟ واحزناه عليك إذ تبدّد شمل أعمالك من الأرباح ، فأصبح هشيماً تذروه الرياح ! فإلى متى هذه الغفلة وعلم القبول قد لاح ! يا غريقاً في بحر هواه اركب سفينة النجاة وأقلع عن أفعالك القباح ، وألق نفسك إلى ساحل الندم مولاك أهل الكرم والسماح .

[كان وكان]

قم في الدياجي وناجي مولاك في وقت السحر إن كنت يا متخلف إلى السحر ترتاح
إلى متى أنت تائه في ظلم ليل المعصيه ارجع إلينا نقد لك من نورنا مصباح
إلى متى كم تبارز مولاك بالفعل الردي انهض وبادر بتوبة وما مضى فسماح
وقم صالح حبيبك فذا أوان صلحه فهو الكريم المسامح والواهب الفتاح
يدعوك في كل ليلة لعلّ حالك ينصلح وأنت نائم غافل ما تقبل الإصلاح

فانهض إذا شئت تربح واسبل دموعك في الدجى
هذا طريق السلامة ومعدن الأرباح

[بالله يا إخواني] ابسطوا الأيدي إلى المولى بالذلّ والضراعة ، وتضرعوا بالذل والانكسار في هذه الساعة ، ونادوا : يا من لا تضره المعصية ولا تنفعه الطاعة ، نسألك أن تبدل منا الفساد بالصلاح والخسران بالأرباح ، وأن تعاملنا بالعفو والسماح ، يا من مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، برحمتك يا أرحم الراحمين . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً دائماً إلى يوم الدين .

المجلس التاسع عشر

في مناقب الصالحين رضي الله عنهم

الحمد لله الواحد الكريم الواجد ، القديم الواحد المنزه عن الولد والوالد ، المقدّس عن المشارك والمساعد ، والمتعالي عن الصاحب والمماثل والمضادّ والمعاند ، والمشكور على جميع النعم المحمود بجميع المحامد ، الذي يسبل ستره الجميل على العاصي وهو ناظر إليه ومشاهد ، ويمنّ برفده الجزيل ، على عبده الذليل ، ويبلغه جميع المقاصد . فسبحان مفجر الأنهار من صم الأحجار والجلامد ، ومطلع الأشجار ومزهي الأزهار من العود اليابس الجامد ، مخرج رطب الثمار من أفنان الأغصان مختلفة المطاعم والألوان صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد . هذه

بعض آثار قدرته وعجائب حكمته وصنعته ، ومن ذلك فليشاهد :

أيا من جلّ عن كيف وأين ... وعن ندّ وعن ولد ووالد
ملكت الكائنات بحسن صنع ... ولانت من مخافتك الجلامد
أذنت لها تكون فاستكانت ... وأنت على جميع الخلق شاهد
وكنت بحيث لا كون وعون ... وحاشى أن تحيط بك المعاهد
وأنت بحيث أنت وليس أين ... ولا كيف تمثله الشواهد
أحطت بجملة الأشياء علماً ... وأنت لكل ما فيها مراصد
فيا من ما له في الملك ثان ... ولا مثل وليس له مضادد
أجرنا من عذابك واعف عنا ... وبلغنا إلى نيل المقاصد
فقد عودتنا الإحسان لطفاً ... وصعب عندنا قطع العوائد

[قال يحيى بن الجلاد] : سمعت أبي رحمة الله عليه يقول : كنت عند معروف الكرخي ﷺ فدخل عليه رجل ، فقال له : يا أبا محفوظ رأيت في هذه الليلة عجباً ، قال : وما هو ؟ قال : اشتهى عليّ أهلي سمكة فذهبت إلى السوق فاشتريتها لهم وحملتها مع حمال صبيّ ومشى معي ، فلما سمع أذان الظهر ، قال لي : يا عم هل لك أن تصلي ؟ فكأنه أيقظني من غفلة فقلت : نعم فوضع الطبق الذي فيه السمكة على باب المسجد ودخل ، فقلت في نفسي : هذا الغلام قد جاد بالطبق فلا أجود أنا بالسمكة فلم يزل يتركع حتى أقيمت الصلاة فصلينا جماعة وتركع بعد الصلاة ، ثم خرجنا فإذا الطبق في مكانه لم يبرح فجئت إلى البيت وأخبرت أهلي بالذي جرى منه ، فقالوا لي : قل له يأكل معنا من هذه السمكة ، فقلت له فقال : أنا صائم ، فقلت له : تفطر عندنا : قال : نعم أرني طريق المسجد فأريته فدخل المسجد وجلس إلى أن صلينا المغرب فجئت إليه وقلت له : تقوم إلى المنزل ، فقال : حتى نصلي العشاء الآخرة فقلت في نفسي هذه ثانية ، فلما صلينا جئت به إلى منزلي وفيه ثلاثة أبيات ، بيت فيه أنا وأهلي ، وبيت فيه صبية مقعدة منذ عشرين سنة ، وبيت فيه ضيفنا فبينما أنا مع أهلي ، وإذا بالباب يطرق في آخر الليل قلت : من ؟ قالت : أنا فلانة ، قلت : إن فلانة مقعدة منذ عشرين سنة وهي قطعة لحم مطروحة في البيت كيف يستوي لها أن تمشي ، فقالت : أنا هي افتحوا لي ففتحنا لها فإذا هي قائمة مستوية فقلنا لها : أخبرينا بخبرك ؟ فقالت : سمعتكم تذكرون ضيفنا هذا بخير فوقع في نفسي أن أتوسل إلى الله تعالى به في كشف ضري فقلت : اللهم بحرمة ضيفنا هذا عندك إلا ما كشفت ضري وعافيتني فاستويت قائمة كما ترونني ، قال : فقمت إليه فلم أجده في البيت فجئت إلى الباب فوجدته مغلقاً بحاله ، فقال معروف ﷺ : نعم فيهم صغار وكبار ، يعني

بذلك أولياء الله تعالى رضي الله عنهم أجمعين :

عبقت بنشر هواهمو ريح الصبا ... وإلى شذاهم كل قلب قد صبا
وتضوعت أنفاسهم ولطالما ... صمت اللسان بها فأصبح معربا
قوم إذا نزلوا بواد مجدب ... فقر تأرّج بالعبير وأعشبا
وإذا بدا البحر الأجاج لشارب ... منهم يعود من المدامة أعذبا
علم المحبة في هواهم مذهب ... فلذاك أصبح حبهم لهم مذهبا
وجدوا فؤادي منزلاً لهواهمو ... فلذاك خيم في حشاي وطنبا
قوم لهم نبأ وحال يقتضي ... شرف الجلال إذا سألت عن النبا
فيهم يزول عن السقيم سقامه ... لما غدا بجنابهم متحسبا
يجزون بالعفو الجميل مسيئهم ... والصفح عن عبد لهم قد أذنبا
هم أولياء الله حقاً في الورى ... وغداً يقال لهم جهاراً مرحبا

فللّه درّهم من أقوام عبدوه لمحبته لا لجنته ، وخدموه لوصله لا لمنحته ، فهم بنور المعرفة إليه ناظرون ، وبأجنحة الشوق إليه طائرون ، وبمناجاته في الأسحار يتلذذون ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : ٦٢] . قال أبو عامر الواعظ رحمة الله عليه : بينا أنا ذات ليلة أسيح في بعض الجبال إذ سمعت صوتاً يئنّ ويصيح ، من قلب قريح ويقول : يا دليل الحائرين في الفلوات يا أنيس المستوحشين في الخلوات ، أنت أنسي إذا استأنس البطالون وأنت فخري إذا افتخر الجاهلون . قال : فأسرعت نحوه وسلمت عليه ، فرد عليّ السلام وقال لي : من أين أقبلت في سواد هذا الليل وإلى أين تريد ؟ قلت : رجل ضال عن الطريق ، وقد سمعت منك كلاماً أنار بقلبي أحزانه وهيج وجده وأشجانه فصاح صيحة وخر مغشياً عليه ، فلما أفاق أخذ في البكاء . قلت : ما هذا البكاء ؟ قال : إني أكره الأماني وضياع الزمان في الفاني ، ثم ولى فاتبعته فأشرف على واد فجلس وهو يبكي فقلت : يرحمك الله إني على غير الجادة فاشتد بكاؤه وصياحه ، وقال : ويحك وأين الجادة أين ذات اليمين ، أين مراتب عليين ؟ ثم ضرب على يدي وتخطى ، فإذا نحن بجانب الوادي . قلت : هذا الفجر قد طلع ونحن نحب الوضوء فضرب بيده الأرض فانفجرت عين ماء عذب ، فقال : دونك فتوضأ وتوضأت ، ثم أذن وأقام الصلاة وصلينا ، فلما سلم قال : يا عبد الله قد دنت مفارقتك فعليك السلام فقلت : بالذي أباحك الوصول إليه والإقبال عليه إلا ما مننت عليّ بدعوة ثم أومأت إلى مزودي . فقال : أجائع أنت ؟ قلت : نعم ، قال : شغلت قلبك عن التفكر في الملكوت بطلب القوت لو ذقت طعم اليقين ، وما أعد الله للمتقين لدام خشوعك ،

وسكن جوعك ثم ضرب الأرض فإذا برغيف كأنما أخرج من النار . فقال : كل فأكلت وأنا متعجب ، وفي نفسي أريد أن أسأله عن ذلك . فقال : يا بطال إن لله رجالاً صدقوا في ترك الشهوات فأخدمهم الأكوان في الحياة والممات ثم غاب عني فلم أره :

اصطفاهم لقربه واجتباهم ... وحماهم من فتنة الشيطان
ودعاهم لبابه وسقاهم ... بكؤوس من خمرة العرفان
وجزاهم بجنة ونعيم ... وقصور والحور والولدان
فهمو لا يرون هذا نعيماً ... لا ولا شوقهم لحور حسان
إنما قصدهم تجلي حبيب ... ليروا ذا الجمال رأي العيان
وينا ديهمو عبادي هلموا ... تظفروا بالأمان والإحسان
فبهذا النعيم تاهوا دلالاً ... وتباهوا به على الأكوان
فبهم يدفع البلاء عن النا ... س ويحمون من سائر الحدثان
وبهم يستقي الإله تعالى ... غيثه عند حاجة الظمآن
فأجرنا بحقهم يا إلهي ... من أليم العذاب والنيران
وتجاوز عما جنيناه جهلاً ... مِنْ قبيح الذنوب والعصيان
واعف عنا فإننا قد أسأنا ... ثم سامح بالعفو والغفران

فللّه درّهم من رجال ، ما تركوا في قلوبهم لغير محبوبهم مجال . قال ذو النون المصري رحمة الله عليه بينا أنا أسيح في بعض الجبال إذ مررت بواد كثير الأشجار والنبات والثمار فجعلت أتفكر في قدرة الله تعالى وحسن صنعته فسمعت صوتاً أهطل مدامعي وهيج نار أضالعي ، فاتبعت الصوت إلى باب مغارة في سفح الجبل ، وإذا الكلام يخرج من داخل المغارة فدخلت فرأيت رجلاً من أهل التعبد والاجتهاد قد براه النحول ، وعليه آثار القبول فسمعته يقول : سبحان من أحيا قلوب المشتاقين بالمناجاة بين يديه ، وكفى نفوسهم مؤنة الطلب فهي لا تعتمد إلا عليه وأفردها لمحبته فهي لا تحنّ إلا إليه ، فلما أحسّ بي ، قلت : السلام عليك يا حليف الأحزان وقرين الأشجان فقال : وعليك السلام ، ما الذي أوصلك إلى من أفرده الخوف عن الأنام ، واشتغل بمحاسبة نفسه عن التنطع في الكلام فقلت : أوصلني إليك الرغبة في التصفح والاعتبار ، والتنزه في رياض الأسرار الأولياء الأخيار . فقال : يا فتى إن لله عباداً قدح في قلوبهم زناد الشغف بمحبوبهم فأرواحهم لشدة الشوق إليه تسرح في الملكوت وتنظر إلى ما ادّخر لها في خزائن الجبروت فأعينهم إلى جماله ناظرة وقلوبهم بمحبته عامرة وأرواحهم إلى لقائه طائرة فهم ملوك الدنيا والآخرة ، ثم بكى وقال : يا سيدي لأعمالهم وفقني وبهم فألحقني ثم صاح

ووقع إلى الأرض ميتاً ، هذه والله صفات الخائفين رحمة الله عليه ، وهذه علامة العارفين :

للّـه قـوم أطـاعوه ومـا قصـدوا ... سـواه إن نظـروا الأكـوان بـالعبر
والوجـد والشـوق والأفكـار قـوتهم ... ولازمـوا الجـدّ والإدلاج في البكـر
وبـادروا لرضـا مولاهمـو وسـعوا ... قصـد السـبيل إليـه سـعي مـؤتمر
وآمنـوا واسـتقاموا مثـل مـا أمـروا ... واستغرقوا وقتـهم في الصـوم والسـهر
وجاهـدوا وانتـهوا عمـا يباعـدهم ... عـن بابـه واسـتلانوا كـل ذي وعـر
جنـات عـدن لهـم مـا يشـتهون بهـا ... في مقعد الصدق بين الـروض والزهـر
لهـم مـن الله مـا لا شـيء يعدلـه ... سمـاع تسـليمه والفـوز بـالنظر

[وعن عبد الرحمن الأزدي] قال : كنت أطوف في ساحل بيروت فمررت برجل جالس على البحر ورجلاه في الماء ، وهو يقول : سبحان من في السماء عرشه ، سبحان من في الأرض حكمه ، سبحان من في الهواء قدرته ، سبحان من في البحر سلطانه ثم سكت ، فقلت له : ما لك جالساً وحدك ؟ فقال : اتق الله عزّ وجل ولا تقل إلا حقاً ما كنت قط وحدي منذ خلقت ، وإن معي ربي حيث كنت ومعي ملكان يحفظاني ويحفظان عليّ فقلت له : أين مقامك ؟ قال : ليس لي مقام معروف ولا كان مخصوص ، قلت : فمن أين تأكل ؟ قال : إذا عرضت لي حاجة إلى ربي سألته إياها بقلبي ولم أسأله بلساني فيأتيني بها . قلت : فبم نلت هذه المرتبة ؟ قال : بصدق التوكل عليه والالتجاء دون الناس إليه ، قلت : قد وجب عليك أن تدعو لنا فقال : ما أنا من خيل هذا الميدان ، ولكن أنت أحق بذلك فقلت : لا بدّ أن توصيني بشيء فقال : قف ذليلاً على بابه ولا تبرح عن جنابه يوصلك إلى حضرة أحبابه ثم مشى على البحر حتى غاب عن عياني :

شـاهدوه وقـد تجلـى فتـابوا ... وحـلا للمحـب فيـه العـذاب
شـربوا شـربة فأضـحوا سـكارى ... ليـت شـعري يـا صـاح مـاذا الشـراب
كتبـوا بالـدموع قصـة شـوق ... فأتـاهم مـن الحبيـب الجـواب
ركبـوا بحـر حبـه ثم سـاروا ... ودعـاهم لوصـله فأجـابوا
فهمـو بالجسـوم بـين البرايـا ... حضـروا عنـد حبـهم ثم غـابوا
وهمـو في الثيـاب لم يبـق منـهم ... غـير رسـم تضـمه الأثـواب
فـاقتفي إثـرهم وجـز بحمـاهم ... يأتـك الفـوز والمـنى والصـواب

[إخواني] عبارات النسيم لا يفهمها إلا المشتاق وحديث البروق لا يروق إلا للعشاق ، خلوا والله بالحبيب في دار المناجاة فكساهم ثياب المواصلة وضمخهم بطيب المعاملة وغالية

السحر غالية ﴿ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٤] فيصبحون وقد كساهم السحر نحولاً وسقاماً ، فازوا بالله ثم بالربح والغنائم وأنت يا مسكين في بيداء الغفلة نائم ، ألك علم بما جرى للقوم يا أسير الغفلة والنوم ؟

[حكي] أن علي بن بكار وأبا إسحاق الفزاري وكانا من الأولياء الصالحين كانا يحتطبان ويأكلان من كسبهما فاتفقا أن يصعدا إلى الجبل من الغداة فيحتطبا ويساعد بعضهما بعضاً فسبق عليّ بن بكار إلى الجبل فاحتطب حزمة وأبطأ عليه رفيقه فجعل يطوف عليه الجبل فرآه وهو جالس متربع وفي حجره رأس أسد وهو ينش الذباب عنه فقال : يا أبا إسحاق ما هذا ؟ فقال له : التجأ إليّ فرحمته وأنا أنتظره لينتبه وألحقك فتركه عليّ بن بكار ومضى فرأى صخرة عليها كيس فيه ألف دينار وقد علاه الغبار والتراب فقال في نفسه : آخذه وأتصدّق به فنزل من الجبل فمرّ بعبد أسود وهو مطروح على وجهه وهو مكسور الرجل وعند رأسه حزمة حطب كان يروم بيعها فقال : ما أجد لصرف هذا الذهب موضعاً أحق من هذا العبد فأخرج من الكيس عشرة دنانير وأتى إليه وقال له : خذ هذه واستعن بها على حالك فرفع العبد رأسه إليه ، وقال له : ضع هذا الذهب مكانه ولا تتصدق بغير كسبك فأنا والله لي سنة أمرّ كل يوم على الكيس وهو ملقى على الصخرة ولم أعلم ما فيه فكيف رغبت أنت في الدنيا وأخذت ما لا يحل لك أخذه ؟ قال عليّ : فخجلت من كلامه وعلمت أنه من الأولياء ثم رددت الكيس إلى مكانه ورجعت إلى العبد فلم أره فسألت عنه فقيل لي : إنه يأتي في كل أسبوع مرة بحزمة حطب فيبعها بدرهم فيتقوّت به باقي الأسبوع ولا يأخذ من أحد شيئاً فهذه والله أحوال الزاهدين وهذه صفات الصالحين . قال بعض السادة : خرجت ليلة من المسجد الحرام أريد جبل أبي قبيس فصحبني عبد أسود عليه أطمار رثة ، وهو يقول : أنت أنت يا هو يا هو لا يزيد على ذلك شيئاً ، فلما أكثر من القول قلت : يا هذا أمجنون أنت ؟ فقال : يا شيخ إنما المجنون من يمشي ألف خطوة ولم يذكر مولاه ، فقلت له : أفضل الذكر عند المحققين ما كان بالقلب فقال : صدقت ، ولكن القلب إذا امتلأ بالذكر فاض على اللسان ثم غاب عن عيني فلم أره فندمت على جفائي عليه ، فلما كان الليل ونمت هتف بي هاتف وقال : يا شيخ إن لذلك العبد الأسود يوم القيامة نوراً يملأ ما بين السماء والأرض فللّه در أقوام أعيادهم قبول الأعمال ومرادهم بلوغ الآمال وأحوالهم تجري على تمام وكمال وجمالهم بالتقوى ويا له من جمال إذا رجع الناس إلى لذاتهم رجعوا إلى عباداتهم وإذا سكن الخلق إلى أوطانهم سكنوا إلى حرقات أشجانهم وإذا أقبل التجار على أموالهم أقبلوا على تفقد أحوالهم وإذا التذ الغافلون بالنوم على جنوبهم تلذذوا في الدجى بكلام محبوبهم ، مثلوا الآخرة بين أيديهم فجدّوا ، ومثلوا المنادي يناديهم فاستعدوا ، وأقبلوا

بالصدق إلى باب مولاهم فما ردّوا ، أقلقهم ذكر الذنوب فما ناموا ، وحركهم رجاء المطلوب فقاموا ، وذكروا العرض ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] فاستقاموا ، وتفكروا في قصر الأجل فاجتهدوا في الخدمة وداموا ، وتذكروا سالف الذنوب فوبخوا أنفسهم ولاموا ، وراموا السلامة في دار المقامة فبلغوا ما أملوا وراموا ، فانتبه يا هذا من رقدة إعراضك وتجافيك وأصلح ظاهرك بالتقى قبل أن يعسر تلافيك ، وتزوّد للرحيل فالقليل لا يكفيك ، وامح ذنوبك بكف الإنابة لعل مولاك من خطاياك يعفيك ، وداو أمراض أملك بشراب ذكر أجلك ، وسل المولى لعله يشفيك :

لكم مهجتي والروح والجسم والقلب ... وكلي لكم ملك وإني بكم صب
وأنتم أحبائي على كل حالة ... فيا فرحتي إن صح لي فيكم الحب
نأيتم فعيني دمعها متواصل ... عليكم وقلبي لا يفارقه الكرب
وكم أتمنى أن أسير إليكمو ... فيمنعني حظي وما تنفع الكتب
خليليّ إن عاينتما أرض يثرب ... وعند رسول الله قد نزل الركب
فقولا له يا أحمد يا محمد ... محب عن الزوّار عوّقه الذنب
عسى جاهك المقبول يكشف غمه ... فجاهك يا مختار يرضى به الرب
فأنت الذي لولاك لم يخلق امرؤ ... ولا فلك يجري ولا غصن رطب
ووجهك بدر في سما الحسن مشرق ... أضاءت به الآفاق والشرق والغرب
على وجهه ستر الغمامة مسبل ... لكيلا تراه الشمس تكسف أو تخبو
على شط بحر النور جبريل قائل ... مقامي هذا ما على صادق عتب
دنا فتدلى حين في النور زجه ... بلا كيف لكن حيث شاء له الرب
جلاه على الأملاك جبريل في السما ... وكانت له من قبل مبعثه تصبو
إلهي بما في قاب قوسين ناله ... أجرنا فإن النار تعذيبها صعب
وكن لي فإني من عذابك مشفق ... بأحمد داركني إذا عظم الخطب
وصلّ على خير الأنام محمد ... وأصحابه في جمعهم وجب الحب

اللهم ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً .

المجلس العشرون

في قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

[مريم : ٣٩]

الحمد لله الذي فتح بصائر أوليائه لمشاهدة مشاهد عجائب الاعتبار والعبر ، واستخلص همهم بصفاء المناجاة ولذة المصافاة من شواغل الأسباب وشوائب الكدر ، تقلبهم يد الألطاف في مهد اللطف فترضعهم ثدي العطف وتفطمهم عن الشهوات المانعة نور البصائر والبصر ، فأصبحت قلوبهم راضية بتعاقب الأحكام وتدبير المشيئة وتقدير الإرادة وتصريف القدر ، مهد لهم فرش الأعمال بلين الصفاء فاستعذبوا طيب الخلوة مع الحبيب ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] يتلذذون بالسهر ، لا تغيرهم محدثات الحوادث وتحوّل الأحوال لاستغراق أسرارهم في أودية التذكر وبحار الفكر ، نزهوا نفوسهم عن عبادة الهوى فأضحت أطيار أرواحهم تسرح في رياض الملكوت بين جنات المعارف ونهر ، لاحظوا إشارة التوحيد في الأكوان فاستوى عندهم الفقر والغنى والعزّ والذلّ والمدح والذم والسهل والوعر ، فسبحان من هداهم إلى نهج منهاج الخلاص بالإخلاص فتخلصوا من شباك الأكوان وطاروا إلى أوطار القرب لا يحزنهم الفزع الأكبر ، أحمده وأشكره ، وأؤمن به وأتوكل عليه وأبرأ من الحول والقوة إليه براءة من اعترف بالتقصير وأقرّ ؛ وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له شهادة من شاهد جمال الحضرة المقدسة واستحضر بحسن الخاتمة فحضر ؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله خاتم النبيين وصفوة المرسلين ، وإمام المتقين رسيد البشر ، ﷺ وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا في دين الله حتى ارتفعت أعلامه على الأديان وظهر .

[إخواني] كم تحملون أحمال الأوزار وهي ثقال ، وكم تبارزون بالمعاصي ذا الجلال وكم تتعللون بالتسويف والآمال ، وكم تتبعون الشهوات وهي خيال . وكم تطمعون في البقاء وقد دنا الانتقال وكم قيدتكم الأماني من التواني بالأغلال . وكم أنذركم من رحل من الأحباب بالارتحال . أين من حصن الحصون وشيدها ؟ أين من جمع الأموال وعددها ؟ أين من عمر الحدائق وغرسها ؟ أين من قاد الجيوش وساسها ؟ أزعجه والله هاذم اللذات من غير اختياره . وأخرجه كرهاً من أهله وداره ولم يمهله ساعة ولم يداره . وقطعه عن آماله وأوطاره . وحال بينه وبين أعوانه وأنصاره . كم دموع من الأسف عند الحمام سواكب على ما مضى من أيام البطالة

في المصائب . وقد شابت في الشهوات الذوائب . فيا له من وقت لا ينفع فيه الحبائب . ولا يغني في النائح والنادب . قضي الأمر فما ينفع العتاب للمعاتب . يا مغترّاً بالآمال رب أمل خائب . كم ينام المطلوب ولا ينام عنه الطالب . ستدري في ظلمة اللحد عاقبة العواقب . وما أمليت من أعمالك على الكاتب . وبعده هول الموقف بين يدي المحاسب . ويبدو لك مسوف أمله الكاذب . هناك والله تضيق المذاهب . وتبدو الخيبة والحسرة والمصائب ، فاغتنموا رحمكم الله أيام أعماركم الفانية ، فسيندم والله أهل القلوب القاسية ، إذا فاز المتقون ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [غافر : ٧٨] ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] الإنذار هو التخويف ، يوم الحسرة هو يوم القيامة : أي يوم يتحسر المسيء إذ لم يحسن والمقصر في الخيرات إذ لم يتزايد . ومعنى قضي الأمر : أي فرغ من الحساب وأدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار وهم في غفلة ، هذا خطاب في الدنيا . وهم لا يؤمنون خطاب في الآخرة : أي لم يردّوا فيؤمنوا . روى عدي بن حاتم رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يؤتى يوم القيامة بناس إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستنشقوا ريحها ونظروا إلى قصورها نودوا أن اصرفرهم عنها فلا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون بمثلها فيقولون ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا كان أهون علينا . قال : ذلك أردت بكم كنتم إذا خلوتم وبارزتموني بالمعاصي وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخبتين تراؤون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم . هبتم الناس ولم تهابوني وأجللتم الناس ولم تجلوني ، فاليوم أذيقكم أليم عذابي مع ما حرمتكم من ثواب الآخرة » . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : إذا بقي من يخلد في النار جعلوا في توابيت والتوابيت في توابيت فلا يظن أحدهم أنه بقي في النار من يعذب سواه ، وليست نفس يوم القيامة إلا وهي تنظر إلى بيت في الجنة وبيت في النار ، يقال لهؤلاء لو عملتم ، ويقال لأهل الجنة : لولا أن منّ الله عليكم . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : كأني بكم صادرين عن الحوض يلقى الرجل الرجل فيقول : أشربت ؟ فيقول : نعم ، ويلقى الرجل الرجل فيقول : واعطشاه ، وقال أنس بن مالك رضي الله عنه: إن ملكاً موكل بالميزان ، فإذا ثقل ميزان إنسان نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خفت موازينه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق شقي فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً . وقال قتادة رضي الله عنه لم يجرم أحد فيخفى جرمه على أحد يوم القيامة .

[إخواني] أهل القبور قد أسروا ، وأكثر القوم في تجارتهم خسروا ، فمروا أنتم عليهم واعتبروا ، وتفكروا في أحوالهم وانظروا ، يتمنون العود وهيهات ، ويسألون التدارك وقد فات ، يا مطلقاً اذكر قيودهم ، يا متحركاً قد عرفت همومهم ، خلص نفسك من أسر الذنوب

وتأهب فإنك مطلوب ، وتذكر بقلبك يوماً تتقلب فيه القلوب ، قبل أن يمسك اللسان ويتحير الإنسان ويزول العرفان ، وتنشر الأكفان وتزول الحضرة وتطول السفرة ويأتي منكر ونكير ويقوى الشهيق والزفير ويلقى العبد ما أسفله وينساه من خلفه ، ويبقى هنالك أسيراً إلى أن يعود فيقوم عرياناً حسيراً ، فحينئذ تسلب الكرائم ، وتنشر الجرائم وتعظم المصائب ، وتنسد المذاهب ، وتبين العجائب وتسود الوجوه ويفوت العاصي ما يرجوه وتثقل على الظهور الأوزار ، ويؤخذ الكتاب باليمين أو اليسار ، وليس لأحد هنالك قرار إلا الجنة أو النار ، فبادروا رحمكم الله بالمتاب قبل ما تعاينون هذه الأهوال وتشهدون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] قال مسمع بن عاصم رحمه الله : بتّ أنا وعبد العزيز ابن سليمان وكلاب بن حرب وسلمان بن الأعرج على بعض السواحل فبكى كلاب حتى خشيت أن يموت ثم بكى عبد العزيز لبكائه ثم بكى سلمان لبكائه وبكيت أنا والله لبكائهم لا أدري ما أبكاهم ؟ فلما كان بعد ذلك سألت عبد العزيز : ما أبكاك ؟ فقال : إني والله العظيم نظرت إلى أمواج البحر فذكرت أطباق جهنم وزفراتها فذاك الذي أبكاني ثم سألت كلاباً فقال مثل ذلك ثم سألت سلمان فقال : ما كان في القوم شر مني ما كان بكائي إلا لبكائهم رحمة لهم مما كانوا يصنعون بأنفسهم :

قف يا صاح نبكي الدمنا ... بعد من قد كان فيها سكنا
وننادي من غرام مقلق ... بعدهم في دارهم واحزنا
طالما كنا بها في دعة ... نجتني من وصلهم ما يجتنى
كم بلغنا من أكناف الحمى ... من لبنات المنى ما سرنا
وافترقنا فكأنا لم نكن ... أبداً في الدار نولي المننا
ليت روحي قبل أن فارقتهم ... فارقت من قبل ذاك البدنا
يا أصيحابي انتهوا وانتهزوا ... فرصة الأوقات فالموت دنا

[إخواني] كأني بكم وقد بلغتم يومكم الموعود وغافصكم ما لم تفتدوا منه بوالد ولا مولود ، مقام تشهد عليكم فيه الألسنة والجوارح والجلود ، ولا يوجد التجلد على النار والجمر ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم : ٣٩] قال الجنيد رحمة الله عليه : دخلت على سري السقطي عند الموت وكان ممن أحرق قلبه الخوف فقلت له : كيف تجدك ؟ فقال :

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي ... والذي بي أصابني من طبيبي

فأخذت المروحة لأروح عليه فقال : كيف يجد ريح المروحة من قلبه يحترق ؟ ثم أنشد :

القلب محترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق
كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الأسى والشوق والقلق

ثم ذكر الله ومات رحمه الله .

[إخواني] ما الذي أعددتم من حلاوة الطاعة لتجرع مرارة الموت ، وما الذي قدّمتموه من زاد التقوى قبل حلول الفوت ، وما الذي حجب أسماع الغافلين عن سماع الصوت ، يا من خلا بالمعاصي ليتك ما خلوت كم ينادي الغافلين منادي المواعظ فلا يستجيبون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ قال إبراهيم التيمي رحمه الله : مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها وأشرب من صديدها ثم قلت لنفسي : ما تريدين ؟ قالت : أردّ إلى الدنيا فأعمل صالحاً قلت : فأنت في الأمنية فاعملي :

يا نفس قد طاب في إمهالك العمل فاستدركي قبل أن يدنو لك الأجل
إلى متى أنت في لهو وفي لعب يغرّك الخادعان الحرص والأمل
وأنت في سكر لهو ليس يدافعه عن قلبك الناصحان العتب والعذل
تزوّدي لطريق أنت سالكة فيها فعما قليل يأتك المثل
ولا تغرك أيام الشباب ففي أعقابها الموبقان الشيب والأجل
يا نفس توبي من العصيان واجتهدي ولا يغرنك الإبعاد والملل
ثم احذري موقفاً صعباً لشدته يغشى الورى المتلفان الحزن والوجل
ويختم الفم والأعضاء ناطقة ويظهر المفصحان الخط والخطل
ويحكم الله بين الناس معدلة فتذكر الحالتان البرّ والزلل

[إخواني] تداركوا ما فرطتم في أيام البطالة فسيلقى كل عامل منكم أعماله يوم يستقيل فلا يجاب إلى الإقالة ويعض أنامله بالندم على الضلالة فيا لها حسرة ما أهولها ورقدة في التراب ما أطولها بالله عليكم نوحوا على أيام الغفلات بالله عليكم تفكروا في مصارع الأموات بالله عليكم بادروا باب الحبيب قبل الفوات فكأني بكم قد غافصكم المنون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

[إخواني] فكوا أنفسكم من أسر الشهوات ، وأيقظوا عقولكم من سكرة الغفلات ، واستعدوا لدار البقاء قبل الفوات فكأني بكم وقد وافاكم حادي المنون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ

﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ستجري والله دموعك أسفاً وحزناً ويشخص لملك الموت البصير الذي بصر نورنا وتبقى على الصراط بأعمالك مرتهناً وتبدو قبائح أفعالك من السر إلى الجهر وتذرف منك والله العيون ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ هيهات بعد فوات الأعمار لا تنفع الحسرة وعند انقطاع الآمال لا تفيد الفكرة ليت شعري ما جوابكم يوم الحيرة إذا نودي : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [المرسلات : ٣٥] ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ إلـهي من لعبيدك أخجلتهم المعاصي والذنوب من لآبق أبعده عن الباب قبيح الزلات والعيوب عفوك يا علام الغيوب فقد حسنا برحمتك الظنون . إلـهي ما أعظم حسرتي أذكر غيري وأنا الغافل ، مولاي ما أشد مصيبتي أنبه غيري وأنا النائم سيدي ما أبلغ قصتي أدل غيري وأنا الحائر . إلـهي جد بالعفو عن مذكر متكلف وسامع متخلف . إلـهي إذا دللت السالكين عليك فوصلوا بحسن موعظتي إليك أتراك تقبل المدلول وتردّ الدليل . إلـهي إن لم يكن كلامي خالصاً لوجهك ففي مجلسي من حضر خالصاً لوجهك فشفعه في تقصيري بنور وجهك وارحمنا أجمعين برحمتك يا أرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

المجلس الحادي والعشرون

في قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١- ٢]

الحمد لله الذي برهن باهر قدرته على إثبات ثبات وحدانيته ببرهان وجود الموجودات الباطنة والظاهرة ، جعل دلائل الحكم وبراهين القدم وآيات الإبداع وشواهد الاختراع نطقاً لقارىء الأفكار على سطور الكائنات الواردة والصادرة كتب رسول القضاء بقلم القدر في دروج الموجودات لا تقرأ كتابة أسرارها إلا بألسنة الأرواح الصافية الطاهرة . بعث كواكب الفهم لعيون العقول فشاهدت عجائب الجبر وغرائب القهر في إثبات الكسب في ديوان ﴿ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] سكر العقل من خمرة العجز وظهر له خيالات الصور من وراء ستر العيب على بساط الحركات والسكنات مقهورة في باطنها وفي ظاهرها قاهرة ، أطلق لمريد العقل طرف الطرف على أرض الفكر ليصل إلى مدينة الإدراك فانقضّ عليه فارس القدر فأوقفه على حدّ العقول حد يقف عنده فعلم أن